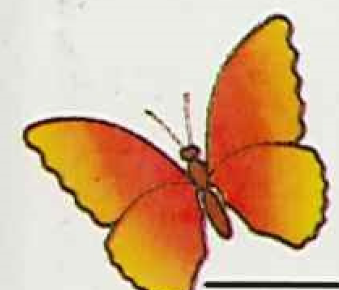
كتب الفراشة - القِصص العالميّة

روبنسون كروزو



القِصص العالميّة ٢٥. روبنسون كروزو

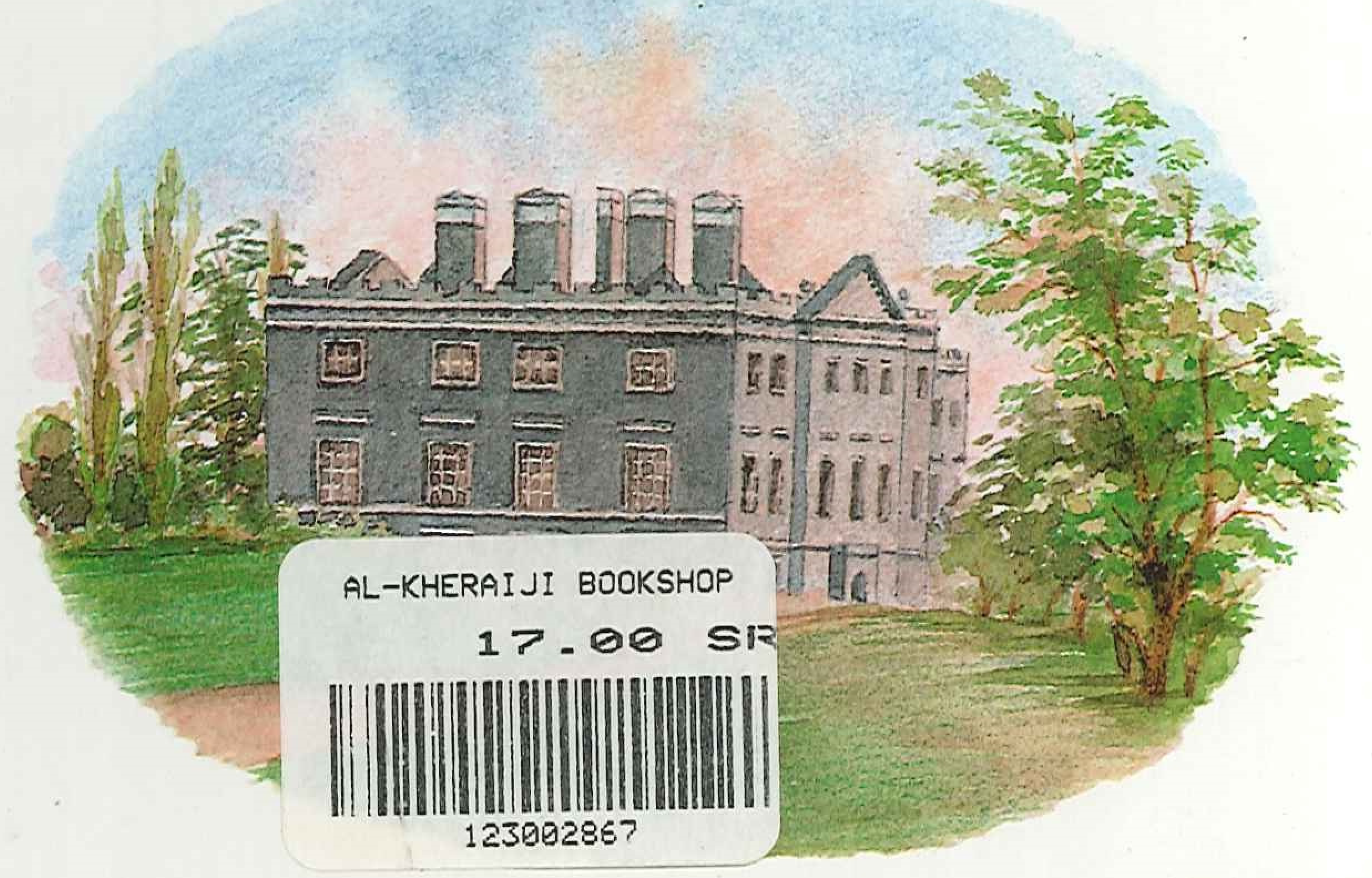
مكتبة لبنان ناشرون

كتب الفراشة

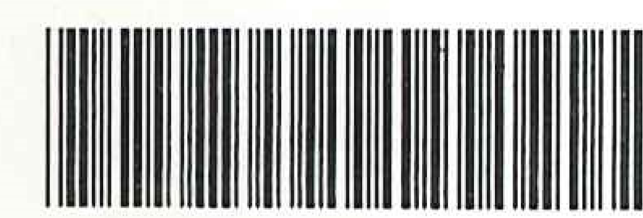
القِصص العالميّة ٢٥. روبنِسون كروزو

روبنسون كروزو قصّة مغامرات يعيشها ابن تاجر، اختار السفر بحثًا عن آفاق جديدة. شقَّ عباب البحر وسافر بعيدًا. تحطّمتْ سفينته ووجد نفسه وحيدًا على جزيرة نائية. عاش أحداثًا غريبة ومغامرات مشوِّقة.

إنّها قصّة مثيرة تُطلِعُنا على مهارات يلجأ إليها الإنسان ليبقى على قيد الحياة وتُفسِحُ المجال أمام كلّ قارئ أن ينظُر إلى دقائق الحياة بمنظاره الخاصّ. أصبحت هذه القصّة، بأحداثها الممتعة والمشوِّقة، من أهمّ القصص التي تتناقلها الأجيال.



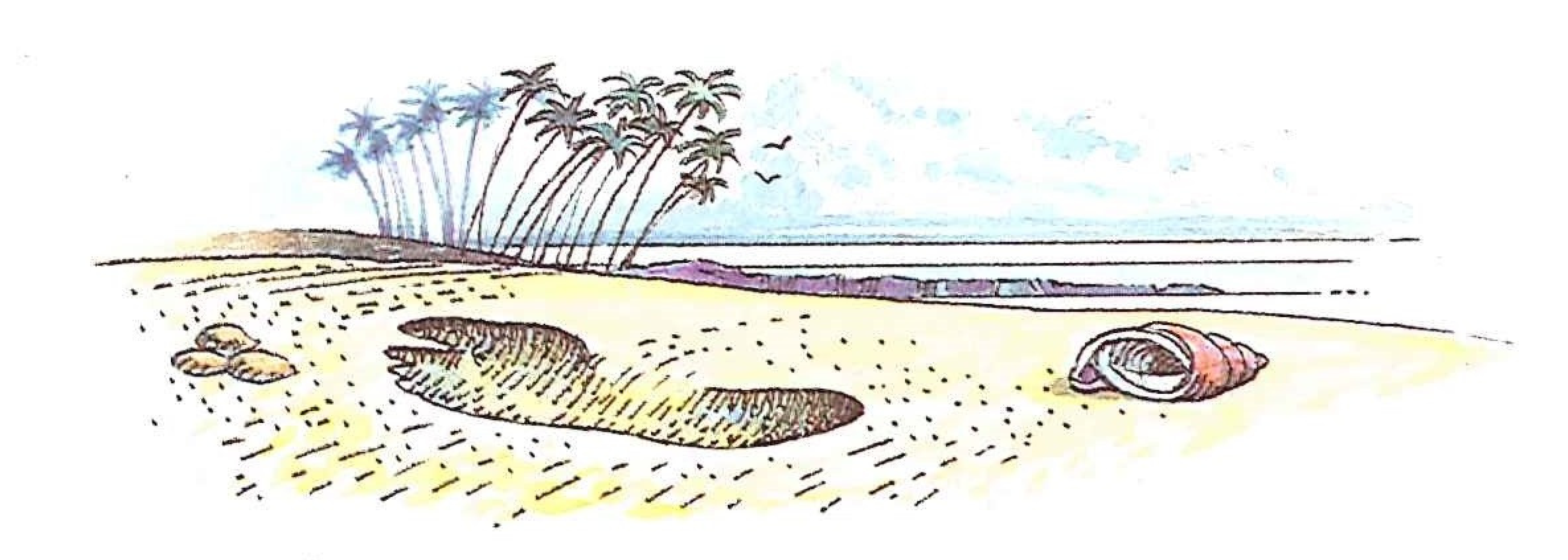
مَكتبة لبنان ناشِرون



01C196825
ROBINSON CRUSOE

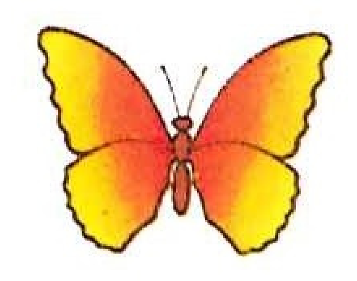
كتب الفراشة - حكايات محبوبة

روبِنْسُون كْرُوزو



تأليف : دانيل ديفو

ترجَمَة : حسين محمّد الجيّار



مكتبة لبنان ناشِرون

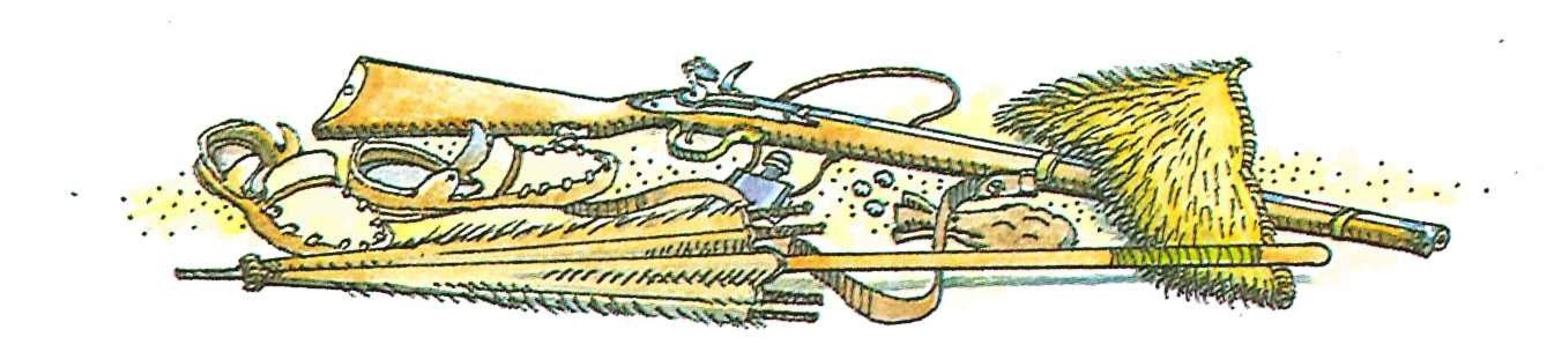
مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل.
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
http://www.librairie-du-liban.com.lb

وكلاء وموزّعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى: ٢٠٠٠

طُبع في لبنان

رقم الكتاب: 01C196825



مقدّمة

عندما نطالعُ روايةَ روبنسون كروزو قد نتساءل عمّا إذا كانت فعلًا تنتمي إلى الأدب الكلاسيكيّ، لا سيّما وأنّ الشائعَ حول الأدبِ الكلاسيكيّ أنّه أقلُّ تشويقًا. إنّها في الواقع تستحقّ تسميةَ رواية كلاسيكيّة بخاصّة وأنّ قرّاءَها توزّعوا عبر الأزمان والأماكن. فبدأ الناسُ قراءةَ روبنسون كروزو منذ قرنين ونصف ومن المتوقّع أن يستمرّوا حتى أجل غير منظور، كما انتشروا في كافة أقطار العالم، لا سيّما وأنّ الكتاب، قد تُرجم إلى لغات مختلفة.

عندما تقرأُ مؤلّفات دانيال ديفو بشكل عامّ، وروبنسون كروزو بشكل خاصّ، تَجعلُك كلماتُه تنسى البيئةَ التي تنتمي إليها والزمنَ الذي تعيشُ فيه وخصائصَك والظروفَ المحيطة بك، فهو يرتقي بك إلى الإنسان العالميّ أي أنّه بعبارة أخرى يمنحُك الفرصةَ لتشعرَ بإنسانيّتك.

يخبرُنا كتابُ روبنسون كروزو عن مغامرات غريبة ويصف مشاهدَ ملوّنةً ويُطلِعُنا على مهارات يَلجأُ إليها الإنسان كي يبقى على قيد الحياة، مهارات لا نكتشفها إلّا عند قراءة يوميّات الرحّالة، علمًا أنّ دانيال ديفو تأثّر بشكل مباشر بعدد من هذه اليوميّات. فهو يدين، إن صحّ التعبير، بالخطوط العريضة في روايته للبحّار الإسكتلنديّ ألكسندر سكليرك التي نقلها القبطان وودز روجيرز سنة ١٧١٢ في كتاب Cruising Voyage Round the World الذي أُعيدَ نشرُه سنة ١٧١٨، أي قبل سنة واحدة على ظهور رواية روبنسون كروزو.

ويقول البعضُ إنّه تأثّر أيضًا برواية القبطان وليام دامبيير التي نُشرت سنة ١٦٩٧

بعنوان New Voyage Round the World . ومن المُحتمل أن يكون دانيال ديفو قد ذهب أبعد من ذلك ، فلعلَّ روايةَ القبطان روبرت نوكس (١٦٨١) بعنوان Ninteen Years in Captivity in Ceylon هي المَصدر الأساسيّ لقصّة روبنسون كروزو .

تَمَرَّسَ دانيال ديفو بالصحافة الواقعيّة وكان ماهرًا في تنسيق الأفكار ، يُجيد الوصفَ بأسلوب حيّ وكان مُضْطلعًا بأمور التجارة والسفر فأحسن دمجَ هذه المهارات وأثمرَ عملُه فوُلِدَتْ تحفةٌ أدبيّةٌ أثْبَتَتْ أنها علامةٌ فارقة بكلّ ما للكلمة من معنى .

نُشرَت روايةُ روبنسون كروزو للمرّة الأولى سنة ١٧١٩ ، ولكن ما لَبِثَت أن أُعيدَ طبعُها مرّات عديدة وتُرجمت إلى لغات مختلفة ، هذا ناهيك عن الاقتباسات الكثيرة والروايات المتعدّدة التي استوحى مؤلّفوها أفكارهم منها . تجدر الإشارة إلى أنّ قصّة روبنسون كروزو كانت مصدر إلهام لعدد لا يستهان به من الأفلام السينمائيّة والتلفزيونيّة التي عالجتها بأساليب متنوّعة تتوجّه لكافة شرائح الجمهور أي للأطفال والكبار على حدّ سواء .

تحكي رواية روبنسون كروزو قصّةَ ابن تاجر ألمانيّ مقيم في إنكلترا ، حَثَّه والدُه على العمل في حقل التجارة لضمان مستقبل زاهر . إلّا أنّ دافعًا غريبًا جعله يبحث عن المغامرات ، فَشقّ عبابَ البحر وسافر بعيدًا نحو آفاق جديدة ، غير أنّه مُنيَ بالفشل عندما تحطّمت سفينتُه وعاش أحداثًا ومغامرات مشوّقة . تفاصيل شيّقة يرويها دانيال ديفو في روايته العالميّةِ الطابع بأسلوب ممتع لا يُغفِل أدقّ التفاصيل ولا يخلو من الوصف الجميل وغير المملّ ، ويدفعُنا للتأمّل بأهمّ العِبَر التي تُعلّمُنا إيّاها تجاربُ الحياة ، مُفسحًا في المجال أمام كلّ قارئ أيًّا كان سنُّه أو مستواه الفكريّ ، أن يستخلصَ الأمثولة وينظرَ إلى دقائق الحياة بمنظاره الخاصّ .



روبِنْسون كْرُوزو

كان عامُ ١٦٣٢ هو عامَ مَوْلِدي في مَدينَةِ يورك الّتي تَقَعُ في الشِّمالِ من إنجلترا - ولقد عَمِلَ والِدي على أنْ أتَلَقّى تَعْليمًا جَيِّدًا ، وكان يَأْمُلُ أنْ أُصْبِحَ مُحامِيًا . ولكنْ خِلافًا لِما كانَ يَنْصَحُني به أبَوايَ أصْرَرْتُ بِعِنادٍ على أنْ أبْنِيَ مُسْتَقْبَلي على العَمَلِ في البِحارِ . وفي نِهايَةِ الأمْرِ قَرَّرْتُ أنْ أهْجُرَ البَيْتَ ، وكُنْتُ في الثّامِنَةَ عشْرَةَ من عُمْري عِنْدَما اتَّخَذْتُ طَريقي إلى لندنَ حامِلًا معي جَميعَ مُدَّخَراتي .

وهُناكَ ، بِالقُرْبِ من أحْواضِ السُّفُنِ في لندنَ - تَعَرَّفْتُ على صاحِبِ سَفينَةٍ كانت تَسيرُ بِانْتِظامٍ لِلتِّجارَةِ مع غينيا على السّاحِلِ الغَرْبيِّ لإفريقيا . ويَبْدو أنّ صاحِبَ السَّفينَةِ هذا قد شَعَرَ بالوُدِّ نَحْوي فَحَثَّني على أنْ أنْضَمَّ إلى طاقَمِ السَّفينَةِ كضَيْفٍ ورَفيقٍ لا كَبَحّارٍ عادِيٍّ . ولمّا كُنْتُ أمْلِكُ بَعْضَ المالِ الخاصِّ فَقَدِ اقْتَرَحَ عليَّ أنْ أحْمِلَ معي بَعْضَ السِّلَعِ التِّجارِيَّةِ وأُحاوِلَ أنْ أبْنِيَ لِنَفْسي بها مُسْتَقْبَلًا .

كان هذا الصَّديقُ رَجُلًا طَيِّبًا وأمينًا ، ولهذا قَرَّرْتُ أنْ أُجَرِّبَ حَظّي في صُحْبَتِهِ . وأنْفَقْتُ أرْبَعينَ جُنَيْهًا في شِراءِ اللُّعَبِ والأشْياءِ الصَّغيرَةِ الّتي أكّدَ لي صاحِبي أنّ لها سوقًا رائِجَةً . ولم يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى بَدَأْنا رِحْلَتَنا .

كانَتِ الرِّحْلَةُ هادِئَةً وغَيْرَ زاخِرَةٍ بالأحداثِ، وكُنْتُ سَعيدًا لاخْتِياري لهذه المِهْنَةِ المُمْتِعَةِ. ومِمّا زادَ من إمْتاعِها أنّ صَديقي - أثْناءَ الرِّحْلَةِ - عَلَّمَني بَعْضَ الرِّياضِيّاتِ وقَدْرًا مِنَ المَعْلوماتِ عَنِ المِلاحَةِ، حَتّى صِرْتُ مَلّاحًا ماهِرًا. أضِفْ إلى ذلِكَ أنَّهُ عِنْدَ وُصولِنا إلى غينيا كَلَّلْتُ مُخاطَرَتي الأولى في التِّجارَةِ بِنَجاحٍ باهِرٍ، وعُدْتُ في نِهايَةِ الأمْرِ إلى لندنَ بِمَكاسِبَ بَلَغَتْ ثَلاثَمائَةٍ مِنَ الجُنَيْهاتِ.

وهكذا، وبدونِ تَرَدُّدٍ، قَرَّرْتُ أنْ أسْتَمِرَّ في العَمَلِ بِالتِّجارَةِ، مُسْتَثْمِرًا مائَةً مِنَ الجُنَيْهاتِ الّتي رَبِحْتُها في شِراءِ مَزيدٍ مِنَ السِّلَعِ لِلتَّصْديرِ ومُدَّخِرًا مَبْلَغَ المائَتَيْنِ المُتَبَقّي لِلْمُسْتَقْبَلِ. كانت آمالُنا عَريضَةً حينَ أبْحَرْنا مَرَّةً أُخْرى إلى غينيا. ولكنْ، ما إنِ اقْتَرَبْنا من جُزُرِ الكناري، فَجْرَ أحَدِ الأيّامِ، حَتّى تَعَرَّضْنا لِهُجومٍ مُفاجِئٍ من قَراصِنَةٍ تَمَكَّنَتْ مَدافِعُهُمُ الثَّمانِيَةَ عَشَرَ من إسْكاتِنا بَعْدَ مُواجَهَةٍ لم تَدُمْ طَويلًا، وبَعْدَها صَعِدَ ما لا يَقِلُّ عن سِتّينَ رَجُلًا من رِجالِ العَدُوِّ إلى ظَهْرِ سَفينَتِنا، ثُمَّ كانَتِ النَّتيجَةُ أنْ أجْبَرونا على الإسْتِسْلامِ بَعْدَ أنْ فَقَدْنا ثَلاثَةً قَتْلى من رِجالِنا وأُصيبَ ثَمانِيَةٌ آخَرونَ بِجِراحٍ جِدِّ خَطيرَةٍ.

أصْبَحْتُ عَبْدًا

وهكذا، أخَذَنا الأعْداءُ أسْرى إلى ميناءِ إحْدى الجُزُرِ، وهُناكَ قامَ القُرْصانُ بِبَيْعِ رُفَقائي في سوقِ العَبيدِ، واحْتَفَظَ بي لِأكونَ عَبْدًا خاصًّا له. لم يُسِئْ أحَدٌ مُعامَلَتي، ولكنْ كان تَحَوُّلًا غَريبًا في حَظّي أنْ أُصْبِحَ في زَمَنٍ قَصيرٍ عَبْدًا بائِسًا بَعْدَ أنْ كُنْتُ تاجِرًا لُنْدُنِيًّا ناجِحًا.

وخِلالَ العامَيْنِ التّالِيَيْنِ كُنْتُ أقْضي مُعْظَمَ وَقْتي حَبيسًا في بَيْتِ سَيِّدي أُؤَدّي أعْمالًا مَنْزِلِيَّةً حَقيرَةً، مَثَلي في ذلِكَ مَثَلُ أيِّ عَبْدٍ آخَرَ، ولكنْ كان يُسْمَحُ لي بَيْنَ الفَيْنَةِ والفَيْنَةِ أنْ أذْهَبَ لِصَيْدِ السَّمَكِ في قارِبٍ صَغيرٍ مِمّا كان يَمْتَلِكُهُ سَيِّدي.



في تلك الرِّحْلاتِ كان يَصْحَبُني دائِمًا زوري - وهو غُلامٌ صَغيرٌ من مارسكو - كما كان معنا خادِمٌ آخَرُ أكْبَرُ سِنًّا وَيَتَمَتَّعُ بِثِقَةِ سَيِّدي التّامَّةِ.

وشَيْئًا فَشَيْئًا بَدَأْتُ أُقَلِّبُ في ذِهْني خُطَّةً لِلْهَرَبِ. وبدونِ أنْ يَلْحَظَ أحَدٌ مَلَأْتُ القارِبَ الصَّغيرَ بِإمْداداتٍ مِنَ الطَّعامِ والماءِ، وبِأدَواتٍ أُخْرى كَثيرَةٍ مِثْلِ شَمْعِ العَسَلِ (لِعَمَلِ شُموعٍ لِلْإضاءَةِ) وخَيْطٍ وبَلْطَةٍ ومِنْشارٍ ومِطْرَقَةٍ. وأخيرًا أخْفَيْتُ على ظَهْرِ القارِبِ ثَلاثَ بَنادِقَ خاصَّةٍ بِسَيِّدي ومعها الطَّلَقاتُ والبارودُ.

وفي الوَقْتِ المُناسِبِ أَبْحَرْنا بَعيدًا عَنِ الميناءِ كما كانَتْ عادَتُنا ، ولكنْ ما إنْ قَطَعْنا مَسافَةَ ميلَيْنِ في عُرْضِ البَحْرِ بَعيدًا عَنِ الميناءِ حَتّى انْقَضَضْتُ على الخادِمِ وأَلْقَيْتُ به من فَوْقِ حافَّةِ القارِبِ ، وأنا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَبّاحٌ ماهِرٌ . غَيْرَ أَنَّهُ أَحَسَّ بالارْتِباكِ تَمامًا وَهُوَ مُتَشَبِّثٌ بِجانِبِ القارِبِ وتَوَسَّلَ إِلَيَّ أَنْ أَرْفَعَهُ إلى ظَهْرِ القارِبِ مَرَّةً أُخْرى . ولكن ما إنْ رآني أَحْمِلُ بُنْدُقِيَّةً مَحْشُوَّةً أَحْضَرْتُها مِنَ الكابينَةِ وأُهَدِّدُهُ بإطْلاقِ النّارِ على رَأْسِهِ إذا لم يَتْرُكِ القارِبَ على الفَوْرِ ، حَتّى أَيْقَنَ المِسْكينُ أَنَّهُ لم يَعُدْ له خِيارٌ فَأَلْقى بِنَفْسِهِ في الماءِ وسَبَحَ إلى الشّاطِئِ . أَمّا الغُلامُ زوري فكان واضِحًا أنّ الرُّعْبَ قد تَمَلَّكَهُ نَتيجَةً لِما رَأى فأَسْرَعَ يُقْسِمُ لي أَنَّهُ سَيَكونُ صادِقًا ومُخْلِصًا لو سَمَحْتُ له بِمُرافَقَتي . لقد كان غُلامًا بَريئًا وَوَدودًا ، وسُرْعانَ ما وافَقْتُ على أَنْ يَظَلَّ بِرِفْقَتي .

الهُروبُ والإِنْقاذُ

أَبْحَرْنا بِثَباتٍ صَوْبَ الجَنوبِ ، وبِحُلولِ السّاعَةِ الثّالِثَةِ مِنَ اليَوْمِ التّالي قَدَّرْتُ أَنَّني كُنْتُ على بُعْدِ مائَةٍ وخَمْسينَ ميلًا على الأَقَلِّ من الجَزيرَةِ التي كُنْتُ فيها عَبْدًا ، وكان ذلِكَ لِحُسْنِ الحَظِّ خارِجَ نِطاقِ مُمْتَلَكاتِ مَلِكِ الجَزيرَةِ ، وعليه فقد كُنّا في أَمانٍ تامٍّ من أَنْ يَتْبَعَنا أَحَدٌ . وكانت خُطَّتي أَنْ أُتابِعَ الإبْحارَ جَنوبًا حَيْثُ تَصَوَّرْتُ أَنَّني قد أَلْقى بَعْضَ السُّفُنِ الأوروبِّيَّةِ . وصَحَّ ما تَصَوَّرْتُهُ ، إذ لم تَمْضِ إلّا أيّامٌ قَلائِلُ حَتّى الْتَقَيْتُ بِسَفينَةٍ بُرْتُغالِيَّةٍ . ورَوَيْتُ قِصَّتي لِرُبّانِها الّذي كان إنْسانًا طَيِّبًا وعَطوفًا ، فَرَحَّبَ بأَنْ يَقومَ بِنَجْدَتي ، وحَمَلَني ومعي زوري إلى سَفينَتِهِ مُعْلِنًا أَنَّهُ مُتَّجِهٌ إلى البَرازيلِ . ولكي أُظْهِرَ امْتِناني له قَدَّمْتُ إليه قارِبي الصَّغيرَ كَهَدِيَّةٍ ، ولكنَّهُ أَصَرَّ على إعْطائي مُقابِلًا له مَبْلَغَ عِشْرينَ جُنَيْهًا .

بَعْدَ أَنْ عَبَرْنا جَنوبَ الأَطْلَنْطي دونَ حادِثٍ يُذْكَرُ ، وَصَلْنا إلى ميناءِ سلڤادور بِالبَرازيلِ . وهُناكَ قُدِّمْتُ إلى مُزارِعٍ بُرْتُغالِيٍّ ثَرِيٍّ اسْتَقْبَلَني كَضَيْفٍ عِنْدَهُ في ضَيْعَتِهِ الجَميلَةِ بِكُلِّ حَفاوَةٍ وكَرَمٍ . وقد دَفَعَني ما رأيْتُ من نَجاحِهِ في زِراعَةِ التَّبْغِ وقَصَبِ السُّكَّرِ إلى أَنْ أُفَكِّرَ في القِيامِ بِنَفْسي بهذا العَمَلِ ، ومن أَجْلِ هذا شارَكْتُ مُزارِعًا مُجاوِرًا . كانَتِ الحَياةُ مَليئَةً بِالبَهْجَةِ والمُتْعَةِ ، وكان شَريكي رَجُلًا مَقْبولًا حَسَنَ العِشْرَةِ ، فَرَحَّبَ بِمُساعَدَتي له ، وفي نِهايَةِ سَنَواتٍ أَرْبَعٍ عَمِلْنا فيها مَعًا نَجَحْنا في إنْجازِ عَمَلٍ مُثْمِرٍ إلى حَدٍّ كَبيرٍ .





خِلالَ هذه الفَتْرَةِ اسْتَطَعْتُ أنْ أُكَوِّنَ صَداقاتٍ وَطيدَةً مع عَدَدٍ مِنَ التُّجارِ والمُزارِعينَ. وعِنْدَما عَلِمَ هَؤلاءِ أنَّني سَبَقَ أنْ قُمْتُ بِرِحْلاتٍ تِجارِيَّةٍ على السّاحِلِ الإفْريقيِّ أغْراني عَدَدٌ منهم أنْ أضُمَّهُمْ معي في رِحْلَةٍ إلى ساحِلِ غينيا. وهكذا أبْحَرْنا في اليَوْمِ الأوَّلِ مِن شَهْرِ سبتمبر عامَ ١٦٥٩ ، وهو نَفْسُ اليَوْمِ المَشْئومِ الّذي فَرَرْتُ فيه من بَيْتِنا قَبْلَ تِسْعِ سَنَواتٍ لِأبْحَثَ عن حَظّي بِالعَمَلِ في البِحارِ.

تَحَطُّمُ السَّفينَةِ

مَرَّتْ أيّامٌ كَثيرَةٌ كُنّا فيها مُتَّجِهينَ بِسَفينَتِنا إلى الشَّمالِ، ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ غَيَّرْنا اتِّجاهَنا إلى الشَّمالِ الغَرْبيِّ مُرورًا بِمَصَبِّ نَهْرِ الأمازونِ العَظيمِ، ثُمَّ تَقَدَّمْنا إلى مَصَبِّ نَهْرِ أورينوكو جَنوبيِّ البَحْرِ الكاريبي.

وهُنا داهَمَتْنا سِلْسِلَةٌ مِنَ العَواصِفِ العاتِيَةِ الّتي كانت مَألوفَةً في تلك المَناطِقِ، مِمّا أحْدَثَ شُروخًا في سَفينَتِنا جَعَلَتْنا نُجَنِّدُ الكَثيرينَ لِاسْتِخْدامِ

المِضَخّاتِ نَهارًا ولَيْلًا. وظَلِلْنا لِعِدَّةِ أيّامٍ تَحْتَ رَحْمَةِ الأمْواجِ العاتِيَةِ والرِّياحِ الرَّهيبَةِ. وفي نِهايَةِ الأمْرِ جَنَحْنا على بَعْضِ الصُّخورِ البَحْرِيَّةِ. واسْتَطَعْنا بِصُعوبَةٍ بالِغَةٍ أنْ نُنْزِلَ قارِبَ النَّجاةِ إلى الماءِ وقد حُشِرَ فيه جَميعُ المَلّاحينَ الأحَدَ عَشَرَ. وفي لَمْحِ البَصَرِ حَطَّتْ عَلَينا مَوْجَةٌ هائِلَةٌ قَلَبَتِ القارِبَ، ووَجَدْنا أنْفُسَنا نُصارِعُ المِياهَ الهائِجَةَ من أجْلِ البَقاءِ. وسَبَحْتُ بِكُلِّ ما أوتيتُ من قُوَّةٍ صَوْبَ الشّاطِئِ، وأسْعَدَني الحَظُّ بأنْ حَمَلَتْني مَوْجَةٌ تِلْوَ مَوْجَةٍ حَتّى أصْبَحْتُ قَريبًا مِنَ البَرِّ. وأخيرًا وَجَدْتُ نَفْسي مُلْقًى على الشّاطِئِ مَنْهوكَ القُوى قَريبًا مِنَ الغَرَقِ.

وعِنْدَما أفَقْتُ قَليلًا تَبَيَّنْتُ على الفَوْرِ أنّني كُنْتُ الوَحيدَ الّذي بَقِيَ على قَيْدِ الحَياةِ، وذلِكَ باسْتِثْناءِ كَلْبٍ وهِرَّتَيْنِ كانت كُلُّها على ظَهْرِ السَّفينَةِ واسْتَطاعَتْ بِطَريقَةٍ ما أنْ تَصِلَ إلى الشّاطِئِ. ولم يَكُنْ هُناكَ أيُّ أثَرٍ لِرُفَقائي التُّعَساءِ اللّهُمَّ إلّا ثَلاثَ قَلَنْسُواتٍ وحِذاءً. وكان البَلَلُ يَغْمُرُني من قِمَّةِ رَأْسي إلى أخْمَصِ قَدَمَيَّ، ولم يَكُنْ في حَوْزَتي شَيْءٌ سِوى مُدْيَةٍ صَغيرَةٍ ولَفَّةٍ مِنَ التَّبْغِ.

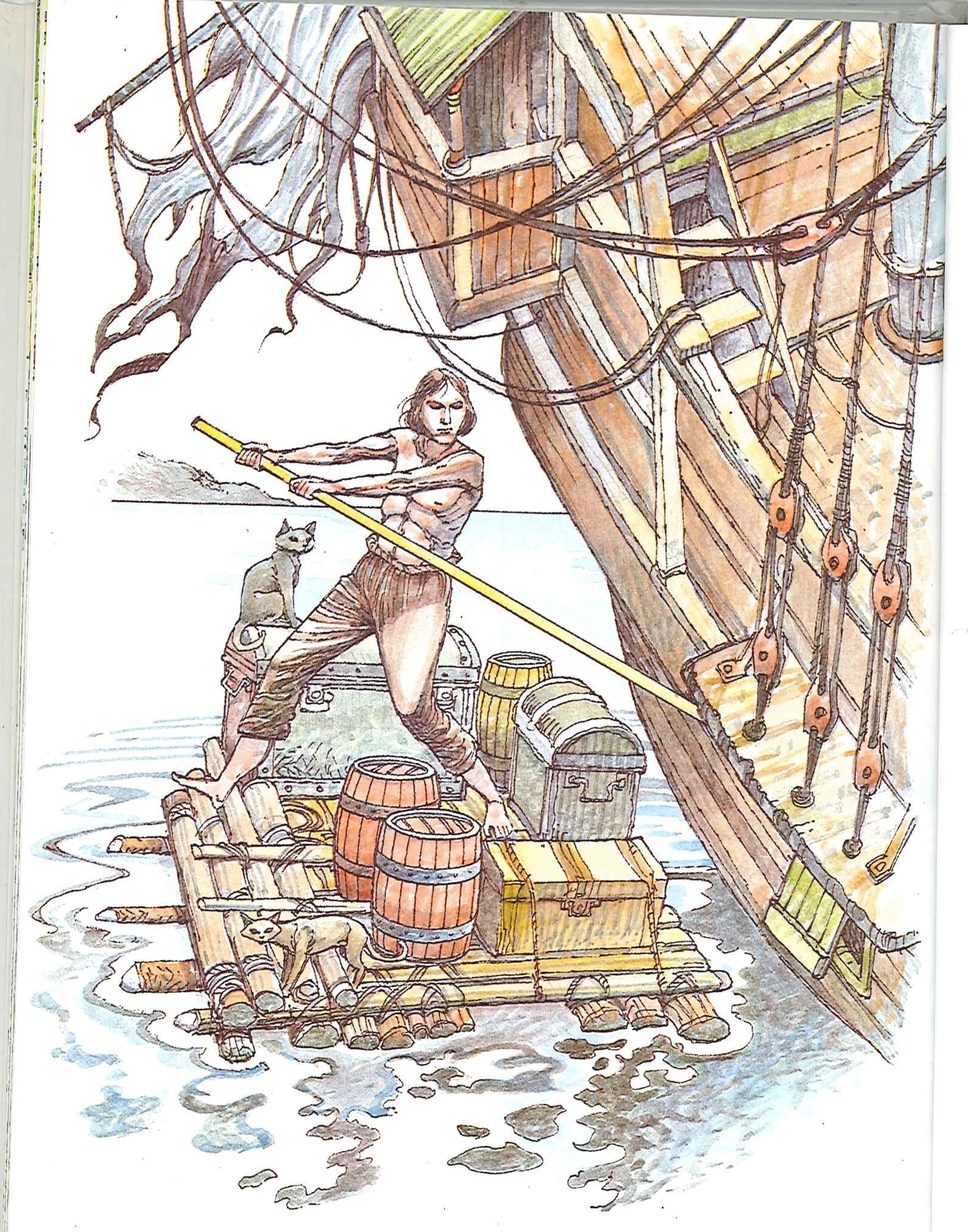
بدَأْتُ بِاسْتِطْلاعِ المِنْطَقَةِ السّاحِلِيَّةِ المُلاصِقَةِ لي ، وكُنْتُ مَحْظوظًا إذ وَجَدْتُ يَنْبوعَ ماءٍ عَذْبٍ بِالقُرْبِ من حافَةِ إحْدى الأدْغالِ . وهُنا قَرَّرْتُ أنْ أقْضِيَ لَيْلَتي فَوْقَ فُروعِ شَجَرَةٍ حَتّى أكونَ آمِنًا من أيِّ حَيَواناتٍ مُفْتَرِسَةٍ أو آدَمِيّينَ مُتَوَحِّشينَ . ومن رَحْمَةِ اللهِ أنَّني قَضَيْتُ اللَّيْلَةَ في سَلامٍ ، وعِنْدَما طَلَعَ النَّهارُ صافِيًا وبَرّاقًا ابْتَهَجْتُ لِرُؤْيَتي سَفينَتَنا وَهِيَ لَمّا تَزَلْ راسِيَةً فَوْقَ صُخورِ الشّاطِئِ .

إنْقاذُ مَخْزونِ السَّفينَةِ

كان اهْتِمامي المُباشَرُ مُنْصَبًّا على أنْ أَصِلَ إلى السَّفينَةِ وأجْمَعَ أيَّ مَخْزونٍ ذي فائِدَةٍ ، وكذلِكَ أيَّ مَوادَّ يُمْكِنُ أنْ أعْثُرَ عليها . ولهذا سَبَحْتُ في وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ من ذلِكَ الصَّباحِ إلى السَّفينَةِ ، وصَعِدْتُ إلى ظَهْرِها بِاسْتِخْدامِ حَبْلٍ كان يَتَدَلّى من مُؤَخَّرَتِها . ثُمَّ فَتَّشْتُ كُلَّ قَمَرَةٍ وكُلَّ مَخْزَنٍ مِمّا لم تَصِلْ إليه المِياهُ ، وهُناكَ وَجَدْتُ صَناديقَ مَمْلوءَةً بِالخُبْزِ كما وَجَدْتُ كَمِّياتٍ من الأرُزِّ والبِسْكَويتِ وقَليلًا مِنَ الجُبْنِ ، وقَليلًا من أكْياسِ القَمْحِ والدَّقيقِ ، وبَعْضًا من لَحْمِ الماعِزِ .

ابْتَهَجْتُ أيْضًا حينَ وَجَدْتُ صُنْدوقًا مَمْلوءًا بِعُدَدِ نَجّارٍ ، وكان مَبْعَثُ بَهْجَتي أنّ تلك العُدَدَ سَوْفَ تَكونُ ذاتَ فائِدَةٍ كَبيرَةٍ لي . وتَمَكَّنْتُ من أنْ أحْمِلَ كُلَّ ما وَجَدْتُ - بما فيه هِرَّتانِ - إلى الشّاطِئِ مُسْتَخْدِمًا طَوْفًا بَسيطًا صَنَعْتُهُ من ألْواحٍ خَشَبِيَّةٍ .

ظَلَلْتُ أيّامًا أتَرَدَّدُ على السَّفينَةِ لإنْقاذِ ما يُمْكِنُ الإفادَةُ منه ، وجَلَبْتُ معي : عَدَدًا من البالاتِ المَمْلوءَةِ بِالمَلابِسِ ، بَعْضَ البَطّانِيّاتِ وغَيْرَها مِمّا يُتَّخَذُ فِراشًا ، أرْجوحَةً شَبَكِيَّةً ، أكْياسًا مَمْلوءَةً بِالمَساميرِ الصَّغيرَةِ والكَبيرَةِ ، رافِعَةً حَلَزونِيَّةً كَبيرَةً ، اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَتَلَةً حَديدِيَّةً ، شاحِذًا لِلسَّكاكينِ وغَيْرَها ، مَجْموعَةً لا بَأْسَ بها مِنَ الأسْلِحَةِ كالبَنادِقِ القَديمَةِ ، والبَنادِقِ الحَديثَةِ ، والبَنادِقِ الّتي تُسْتَخْدَمُ في صَيْدِ الطُّيورِ ، والمُسَدَّساتِ والخَناجِرِ ومع كُلِّ تلك الأسْلِحَةِ جَلَبْتُ أيْضًا البَراميلَ المَمْلوءَةَ بِالطَّلَقاتِ والبارودِ . وبالإضافَةِ إلى ذلِكَ كُلِّهِ تَمَكَّنْتُ من أنْ أَحْمِلَ إلى الشّاطِئِ كَثيرًا مِنَ العَوارِضِ والأعْمِدَةِ والألْواحِ الخَشَبِيَّةِ ، وكذلِكَ أشْرِعَةً إضافِيَّةً وحِبالًا ، وأقْمِشَةً مِنَ القِنَّبِ .



وحينَ عُدتُ إلى الشّاطِئِ كان هَمّي الأوّلُ والمُلِحُّ أنْ أُشيِّدَ نَوْعًا مِنَ المَأْوى لي ولِما جَلَبْتُ من مَخْزونِ السَّفينَةِ ، وفَعَلْتُ ذلِكَ مُسْتَخْدِمًا قُماشَ الأشْرِعَةِ والأعْمِدَةِ الّتي أنْقَذْتُها مِنَ السَّفينَةِ . وما إنِ انْتَهَيْتُ حَتّى حَصَّنْتُ نَفْسي في الدّاخِلِ بِبَعْضِ الصَّناديقِ والألْواحِ الخَشَبِيَّةِ ، وكذلِكَ بِبَعْضِ أخْشابِ الأشْجارِ ، ثُمَّ نِمْتُ نَوْمًا عَميقًا . وبِجانِبي كُنْتُ دائِمًا حَريصًا على أنْ أحْتَفِظَ بِبُنْدُقِيَّةٍ مَحْشُوَّةٍ وأيْضًا بِمُسَدَّسَيْن .



وَظَلَلْتُ بعد ذلِكَ مُسْتَمِرًّا في إنْقاذِ ما أمْكَنَني إنْقاذُهُ مِنَ السَّفينَةِ ، ولم يَنْقَضِ ثَلاثَةَ عَشَرَ يَوْمًا حَتّى كُنْتُ قد جَلَبْتُ إلى الشّاطِئِ مُعْظَمَ ما كان ذا قيمَةٍ في حُطامِ السَّفينَةِ . وفي رِحْلَتي الأخيرَةِ إليها أحْضَرْتُ مَزيدًا مِنَ الحِبالِ والأسْلاكِ ، وثَلاثَ شَفَراتٍ لِلْحِلاقَةِ ، ومِقَصًّا كَبيرًا ، واثْنَتَيْ عَشْرَةَ سِكّينًا وشَوْكَةً ومِلْعَقَةً ، ومع كُلِّ ذلِكَ أحْضَرْتُ حَقيبَةً صَغيرَةً مَمْلوءَةً بِالنُّقودِ - عُمُلاتٍ ذَهَبِيَّةٍ وفِضِّيَّةٍ . وابْتَسَمْتُ حينَ فَحَصْتُ النُّقودَ ، ذلِكَ أنّها كانت عَديمَةَ القيمَةِ تَمامًا بِالنِّسْبَةِ لي على الجَزيرَةِ ، فَمُدْيَةٌ واحِدَةٌ كانت أكْبَرَ قيمَةً من كُلِّ ما كان في الحَقيبَةِ من نُقودٍ . وهَبَّتْ عاصِفَةٌ في تلك اللَّيْلَةِ ، واكْتَشَفْتُ في الصَّباحِ التّالي أنّ حُطامَ السَّفينَةِ قَدِ اخْتَفى وأصْبَحَ أثَرًا بعد عَيْنٍ .

بَنَيْتُ لي حِصْنًا

بَدَأْتُ من تلك اللَّحْظَةِ أُكَرِّسُ نَفْسي لِمُحاوَلَةِ إيجادِ مَوْقِعٍ مُناسِبٍ لِبَيْتي الدّائِمِ . وبَعْدَ البَحْثِ والاسْتِكْشافِ وَجَدْتُ المَوْقِعَ المِثالِيَّ : سَهْلٌ أخْضَرُ صَغيرٌ مِساحَتُهُ مائَتا يارْدَةٍ طُولًا ومائَةٌ عَرْضًا ، تَحْميهِ مِنَ الخَلْفِ هَضَبَةٌ صَخْرِيَّةٌ شَديدَةُ الانْحِدارِ ومواجِهَةٌ لِلشَّمالِ الغَرْبِيِّ . وبِالتّالي فقد كانت مَحْمِيَّةً من حَرارَةِ الشَّمْسِ ووَهْجِها في وَسَطِ النَّهارِ . وفي أسْفَلِ الصَّخْرَةِ كان هُناكَ كَهْفٌ صَغيرٌ اعْتَزَمْتُ أنْ أُوَسِّعَهُ في الوَقْتِ المُناسِبِ . وعلى بُعْدِ مَسافَةٍ قَصيرَةٍ كان هُناكَ يَنْبوعُ ماءٍ نَقِيٍّ ، وبَعْدَهُ بِحَوالى ثَلاثَةِ أرْباعِ الميلِ كان هُناكَ الخَليجُ الصَّغيرُ الّذي تَمَكَّنْتُ من أنْ أُرْسِيَ فيه طَوْفي .

ولاحَظْتُ أنّ أمامَ الصَّخْرَةِ كان هُناكَ شِبْهُ دائِرَةٍ قُطْرُها عِشْرونَ يارْدَةً ، ومَشَيْتُ فيها بَيْنَ صَفَّيْنِ من الأوْتادِ القَوِيَّةِ الّتي كانَتْ تَرْتَفِعُ خَمْسَةَ أقْدامٍ عَنِ الأرْضِ وتَنْتَهي بِرُؤوسٍ مُدَبَّبَةٍ حادَّةٍ . وقَرَّرْتُ أن تَكونَ هذه الأعْمِدَةُ هي السِّياجَ أو وَسيلَةَ الدِّفاعِ الخارِجِيَّ الّذي أمْكَنَني أنْ أتَسَلَّقَهُ بواسِطَةِ سُلَّمٍ خَشَبِيٍّ . وهكذا عِنْدَما كُنْتُ أجْذِبُ السُّلَّمَ عِنْدي من فَوْقِ السِّياجِ بَعْدَ دُخولي إلى أرْضي ، كان ذلِكَ ضَمانًا لِتَأْمينِ نَفْسي ضِدَّ أيِّ هُجومٍ مُفاجِئٍ .

فَكَّرْتُ في بَيْتي الجَديدِ كقَلْعَةٍ أو حِصْنٍ ، ونَقَلْتُ إليه داخِلَ جُدْرانِهِ كُلَّ مَخْزوني وأدَواتي ، ثُمَّ أقَمْتُ فَوقَ الجُدْرانِ خَيْمَةً صَنَعْتُها من أقْمِشَةِ الأشْرِعَةِ الّتي أنْقَذْتُها من حُطامِ السَّفينَةِ . وأصْبَحَ كُلُّ ما شَيَّدْتُ كافِيًا لِيَضُمَّني وكُلَّ ما كان عِندي من إمْداداتٍ .

ولكي أجْعَلَ كُلَّ شَيْءٍ مانِعًا لِتَسَرُّبِ الماءِ ثَبَّتُّ غِطاءً آخَرَ من قُماشِ الأشْرِعَةِ فَوْقَ الخَيْمَةِ ، ثُمَّ ألْقَيْتُ أخيرًا مُشَمَّعًا كَبيرًا على سَطْحِها . بعد ذلِكَ دَعَمْتُ السِّياجَ بِرُكامٍ مِنَ التُّرابِ ، وبَدَأْتُ بَعْدَها العَمَلَ في تَغْطِيَةِ خَيْمَتي بالقَشِّ وأوْراقِ الشَّجَرِ . وما إنِ انْتَهَيْتُ من ذلِكَ حَتّى انْتَقَلْتُ إلى حَفْرِ وتَوْسيعِ الكَهْفِ الصَّغيرِ الواقِعِ في أسْفَلِ الصَّخْرَةِ خَلْفَ خَيْمَتي مُخْتَتِمًا ما أنْجَزْتُ بِعَمَلِ مَخْرَجٍ لِلطَّوارِئِ وَراءَ السِّياجِ عِنْدَ نِهايَتِهِ .

ولقد سارَ كُلُّ هذا العَمَلِ الشّاقِّ بِبُطْءٍ ، لأنَّهُ لم يَكُنْ عِنْدي إلّا القليلُ جِدًّا مِنَ الآلاتِ اللّازِمَةِ ، كما كانت تَنْقُصُني المَهارَةُ الكافِيَةُ لِاسْتِخْدامِها . وعلى سَبيلِ المِثالِ قَضَيْتُ عِدَّةَ أيّامٍ لأصْنَعَ مُجَرَّدَ طاوِلَةٍ بَسيطَةٍ وغَيْرِ مُتْقَنَةٍ وكذلِكَ كُرْسِيٍّ لأضَعَهُما في غُرْفَةِ مَعيشَتي بِالكَهْفِ ، ولكي أُعَوِّضَ النَّقْصَ المُتَزايِدَ فيما كان عِنْدي مِنَ الألْواحِ الخَشَبِيَّةِ بَدَأْتُ في بَذْلِ جَهْدٍ جَبّارٍ لِأقْطَعَ ألْواحًا من جُذوعِ الأشْجارِ مُسْتَخْدِمًا البَلْطَةَ والقَدّومَ . وفي نِهايَةِ الأمْرِ بَعْدَ مُرورِ عِدَّةِ أشْهُرٍ مِنَ العَمَلِ الشّاقِّ انْتَهَيْتُ من صُنْعِ ما يَكْفي مِنَ الألْواحِ الخَشَبِيَّةِ غَيْرِ المَصْقولَةِ لِأتَمَكَّنَ من أنْ أُقيمَ بها أرْفُفًا على حائِطِ الكَهْفِ لِأضَعَ عليها عُدَدي ومَساميري وَغَيْرَ ذلِكَ بِحالَةٍ مُنَسَّقَةٍ ومُنَظَّمَةٍ .

ولكي أُخَفِّفَ مِنَ التَّوَتُّرِ النّاتِجِ عن هذا الجَهْدِ العَضَلِيِّ الشّاقِّ ، كُنْتُ أَخْرُجُ كُلَّ يَوْمٍ بِانْتِظامٍ مُسَلَّحًا بِبُنْدُقِيَّتي لِأُؤَمِّنَ غِذائي ، وكان مِمّا بَعَثَ فِيَّ سُرورًا بالِغًا أنّي صادَفْتُ مَرَّةً قَطيعًا مِنَ الماعِزِ البَرِّيِّ ، وعلى الفَوْرِ أطْلَقْتُ النّارَ على واحِدَةٍ منها وحَمَلْتُها إلى خَيْمَتي حَيْثُ أمَدَّتْني بِلَحْمٍ شَهِيٍّ رائِعٍ لِعِدَّةِ أيّامٍ . ثُمَّ كان ما اقْتَنَصْتُهُ مِنَ الأرانِبِ والطُّيورِ البَرِّيَّةِ ما ساعَدَني أيْضًا على أنْ أُنَوِّعَ في نِظامِ غِذائي .





بَدَأْتُ في كِتابَةِ يَوْمِيّاتي

بَدَأْتُ في هذا الوَقْتِ أُدَوِّنُ يَوْمِيّاتي الّتي بَنَيْتُ عليها مُعْظَمَ أحداثِ هذه القِصَّةِ. ولِحُسْنِ الحَظِّ وَجَدْتُ بَيْنَ الأَقْفاصِ والصَّناديقِ الّتي حَمَلْتُها إلى الشّاطِئِ بَعْضَ الأَقْلامِ وحِبْرًا ووَرَقًا، كما وَجَدْتُ ثَلاثَ بُوصَلاتٍ ومِنْظارًا مُقَرِّبًا صَغيرًا وبَعْضَ الآلاتِ الحاسِبَةِ ولَوْحاتٍ وكُتُبًا عَنِ المِلاحَةِ البَحْرِيَّةِ وأشياءَ أُخْرى مُفيدَةً. وبهذا اسْتَطَعْتُ أن أُتابِعَ أَيّامَ الأُسْبوعِ وأَنْ أَتَأَكَّدَ أنّني وَصَلْتُ الجَزيرَةَ في اليَوْمِ الثّلاثينَ مِنْ شَهْرِ سبتمبر عامَ ١٦٥٩، وأَنَّ جَزيرَتي كانت تَقَعُ على بُعْدِ تِسْعِ أو عَشْرِ دَرَجاتٍ شِماليّ خَطِّ الاسْتِواءِ.

هذه الكِتابَةُ وهذا التَّدْوينُ جَعَلاني أشْعُرُ بالحاجَةِ إلى شُموعٍ لكي تُضيءَ لي الكَهْفَ وتُبَدِّدَ ظُلْمَتَهُ الّتي كانت تَحُلُّ في كُلِّ الأَحْوالِ قَبْلَ السّاعَةِ السّابِعَةِ مَساءً. لِهذا، وبَعْدَ مَرّاتٍ كَثيرَةٍ مِنَ المُحاوَلَةِ والخَطَإِ اسْتَطَعْتُ أنْ أُشَكِّلَ مَصابيحَ

زَيْتٍ صَغيرَةً في أَطْباقٍ غَيْرِ كَبيرَةٍ مِنَ الطَّمي، وبِمَلْءِ هذه الأطْباقِ بِالدُّهْنِ أَوِ الشَّحْمِ الحَيَوانِيِّ الّذي كُنْتُ أَجْمَعُهُ أثْناءَ شَيِّ لَحْمِ الماعِزِ أَوِ الطُّيورِ على النّارِ، كُنْتُ أُشْعِلُ المِصْباحَ بِاسْتِخْدامِ خَيْطٍ أو جَديلَةٍ رَفيعَةٍ كَفَتيلٍ.

وذاتَ يَوْمٍ بَيْنَما كُنْتُ أَقومُ بِتَنْظيفِ كَهْفي، نَفَضْتُ البَقايا المُتْرِبَةَ من بَعْضِ الأَكْياسِ الصَّغيرَةِ الّتي كانت تَحْتَوي على شَعيرٍ وأَرُزٍّ مِمّا الْتَهَمَتْهُ الفِئْرانُ في الغالِبِ. وبَعْدَ ذلِكَ بِحَوالى الشَّهْرِ أصابَتْني دَهْشَةٌ كَبيرَةٌ حينَ لاحَظْتُ بُروزَ بَراعِمَ خَضْراءَ صَغيرَةٍ من نَباتِ الشَّعيرِ ونَباتِ الأَرُزِّ في التُّرْبَةِ الرَّطْبَةِ خارِجَ الكَهْفِ، وأَدْرَكْتُ في الحالِ أنّ العِنايَةَ الإلهيَّةَ الرَّحيمَةَ قد وَهَبَتْني الوَسيلَةَ لِزِراعَةِ ما أَحْتاجُ إليه من مَحاصيلَ. وبِزِراعَةٍ مُتْقَنَةٍ نَجَحْتُ أخيرًا في إنْتاجِ ما يَكْفيني مِنَ الشَّعيرِ والأَرُزِّ حَتّى الزِّراعَةِ التّالِيَةِ.

وقُمْتُ بِاسْتِكْشافِ الجَزيرَةِ

أَصْبَحْتُ أَشْعُرُ الآنَ بِالثِّقَةِ والأَمانِ اللَّذَيْنِ كانا كافِيَيْنِ لِدَفْعي إلى مُحاوَلَةِ اسْتِكْشافِ الجَزيرَةِ في كُلِّ أَرْجائِها. وحينَ تَوَغَّلْتُ عِدَّةَ أَمْيالٍ داخِلَها وَجَدْتُ مُروجًا وأدْغالًا رائِعَةً صادَفْتُ فيها وَفْرَةً مِن نَباتِ التَّبْغِ ومِنَ البَطّيخِ والعِنَبِ وقَصَبِ السُّكَّرِ، فالْتَقَطْتُ كَمِّيّاتٍ كَبيرَةً مِنَ العِنَبِ وجَفَّفْتُها بِحَرارَةِ الشَّمْسِ كي تُزَوِّدَني بِإمْدادٍ وَفيرٍ مِنَ الزَّبيبِ اللَّذيذِ الطَّعْمِ على مَدارِ السَّنَةِ. وحينَ صَعِدْتُ إلى قِمَّةِ رَبْوَةٍ

عالِيَةٍ تَبْعُدُ عن هذه المِنْطَقةِ أَرْبَعَةَ أَمْيالٍ أَمْكَنَني أَنْ أرى المِنْطَقَةَ السّاحِلِيَّةَ على الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الجَزيرَةِ. ولمّا هَبَطْتُ إلى الأَوْدِيَةِ وَجَدْتُ أعْدادًا كَبيرَةً من أَشْجارِ البُرتُقالِ واللَّيمونِ. وقد أَمَدَّني ذلك بالمَشْروباتِ اللَّذيذَةِ المُنْعِشَةِ. وكانَتِ المِنْطَقَةُ في واقِعِ الأَمْرِ جَذّابَةً بِدَرَجَةٍ جَعَلَتْني أُقَرِّرُ أَنْ أَبْنِيَ لِنَفْسي بَيْتًا آخَرَ يَكونُ مَقَرًّا ريفِيًّا أَسْتَطيعُ أَنْ أَقْضِيَ فيه جُزْءًا مِنَ الصَّيْفِ كُلَّ عامٍ قَبْلَ أن أعودَ أدْراجي إلى قاعِدَتي الأساسِيَّةِ أو حِصْنِيَ الرَّئيسِيِّ عِنْدَما تَهْطِلُ الأَمْطارُ في شَهْرَيْ أُغُسْطُس وسِبْتَمبر.

مَقَرِّيَ الصَّيْفِيّ

خِلالَ الشَّهْرَيْنِ التّالِيَيْنِ شَرَعْتُ في إِنْشاءِ هذا البَيْتِ الآخَرِ بإِقامَةِ سِياجٍ دِفاعِيٍّ وخَيْمَةٍ مَنيعَةٍ أَخْفَيْتُها بِالأَشْجارِ والأَوْتادِ والأَغْصانِ المَقْطوعَةِ من أَشْجارٍ كَبيرَةٍ. وحَدَثَ أَنَّني كُنْتُ في مَقَرِّي الصَّيْفِيِّ ذاتَ يَوْمٍ شَديدِ الصَّفاءِ عِنْدَما شاهَدْتُ في الأُفُقِ البَعيدِ خيالَ بُقْعَةٍ من اليابِسَةِ على بُعْدِ ما يَقْرُبُ من أَرْبَعينَ ميلًا، وقَدَّرْتُ حِينَذاكَ أَنْ تَكونَ تلك مِنْطَقَةً إِسْبانِيَّةً.

وفي الدَّغَلِ القَريبِ من مَقَرِّي الصَّيْفِيِّ صادَفْتُ سِرْبًا من البَبَّغاواتِ ذاتِ الأَلْوانِ البَرّاقَةِ، وتَمَكَّنْتُ من أَنْ أُمْسِكَ واحِدًا منها وأَخَذْتُهُ إلى حِصْنِيَ الرَّئيسِيِّ حَيْثُ عَمَدْتُ إلى أَنْ أَعْمَلَ بِجِدٍّ كي أُعَلِّمَهُ الكَلامَ. وبَعْدَ سَنَتَيْنِ تَمَكَّنَ من أَنْ يُتْقِنَ ذلكَ بِنَجاحٍ. وأَذْكُرُ كيف أَنَّني رَقَصْتُ طَرَبًا حينما نَطَقَ بَبَّغائي لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنادِيًا إِيّايَ: «پول (وهو الاسْمُ الّذي كنتُ أُناديه به)، يا پول الظَّريفُ». فقد كانت تلك هي الكَلِماتِ الإِنْجليزِيَّةَ الأولى الّتي الْتَقَطَتْها أُذُنايَ مُنْذُ أَنْ أَلْقَتْ بِيَ الأَقْدارُ على شاطِئِ تلك الجَزيرَةِ.

وقَبْلَ أَنْ أُغادِرَ مَقَرِّيَ الثّاني في نِهايَةِ الصَّيْفِ ثَبَّتُّ عَمودًا طَويلًا على الشّاطِئِ الرَّمْلِيِّ لِيَكونَ مُرْشِدًا لي ولِيَكونَ أَيْضًا عَلامَةَ احْتِفالي بِذِكْرى ما بَذَلْتُ من جُهودٍ. ثُمَّ بعد ذلكَ اقْتَفَيْتُ آثارَ قَدَمَيَّ حَتّى وَصَلْتُ إلى قاعِدَتي الرَّئيسِيَّةِ، أي حِصْني، وأنا مَنْهوكُ القُوى من حَرارَةِ الجَوِّ بالإضافَةِ إلى ثِقْلِ ما كُنْتُ أَحْمِلُهُ من أَسْلِحَةٍ وذَخيرَةٍ وطَعامٍ وغَيْرِ ذلك مِمّا يُمْكِنُ أَنْ أَحْتاجَ إليه.



أصْبَحْتُ خزّافًا

بدا أنّ عامَيْنِ قَدِ انْصَرما بَيْنَما كُنْتُ مُسْتَمِرًّا في الكِفاحِ من أجْلِ تَطْويرِ الأعمالِ الحَيَوِيَّةِ في غِيابِ الآلاتِ المُناسِبَةِ ، وبِمَهاراتٍ لم تَكُنْ أبَدًا كافِيَةً . غَيْرَ أنّي سُرِرْتُ كَثيرًا لِنَجاحي في تَشْكيلِ قِدْرَيْنِ أو جَرَّتَيْنِ كَبيرَتَيْنِ مِنَ الطّمي . وقد تَمَكَّنْتُ بعد ذلِكَ من تَجْفيفِهِما في الشَّمْسِ حَتّى صارَتا صُلْبَتَيْنِ تمامًا ، ثُمَّ وضَعْتُهُما في وِعاءَيْنِ مَصْنوعَيْنِ مِنَ الأغْصانِ الصَّغيرَةِ اللَّيِّنَةِ لِحِفْظِهِما مِنَ الكَسْرِ . واسْتَطَعْتُ بذلِكَ أنْ أحْفَظَ فيهما جُزْءًا مِمّا كان عِنْدي من مَخْزونِ القَمْحِ والأرُزِّ . ونَتيجَةً لذلِكَ وَجَدْتُ أنَّهُ كان أيْسَرَ عليَّ كثيرًا أنْ أصْنَعَ قُدورًا وصُحونًا بِنَفْسِ الطَّريقَةِ ، وسُرْعانَ ما وَجَدْتَني أمْتَلِكُ مَجْموعَةً كَبيرَةً منها .

هذه النَّجاحاتُ المُتَتالِيَةُ قادَتْني إلى مُحاوَلَةِ تَجْفيفِ تلك القُدورِ في النّارِ كي تُصْبِحَ في الحَقيقَةِ أكْثَرَ صَلابَةً وَتَحَمُّلًا . ولكي أُنْجِزَ ذلِكَ وَضَعْتُ سِتَّةَ قُدورٍ وصُحونٍ من مُخْتَلِفِ الأشْكالِ في فُرْنٍ وأحَطْتُها كُلَّها بِكَمِّيَّةٍ من حَطَبِ الوَقودِ . ثُمَّ أشْعَلْتُ النّارَ في الحَطَبِ وأخَذْتُ أُغَذّيهِ بالمَزيدِ لِتَظَلَّ النّارُ مُشْتَعِلَةً . وبعد وَقْتٍ قَصيرٍ اسْتَطَعْتُ أنْ أرى القُدورَ وَهِيَ مُتَوَهِّجَةٌ إلى دَرَجَةِ الاحْمِرارِ . وتَرَكْتُ النّارَ مُشْتَعِلَةً لِمُدَّةِ خَمْسٍ أو سِتِّ ساعاتٍ ، بَعْدَها تَرَكْتُ القُدورَ لِتَبْرُدَ بِبُطْءٍ حَتّى حَصَلْتُ في النِّهايَةِ على بَعْضِ الأواني الخَزَفِيَّةِ الرّائِعَةِ الّتي اسْتَطَعْتُ اسْتِخْدامَها فيما بَعْدُ كأواني لِلطَّبْخِ . وبهذه الأواني الجَديدَةِ أمْكَنَني أنْ أُعِدَّ ما لَذَّ وطابَ مِنَ المَرَقِ واليَخْني مِمّا كان لَدَيَّ من أصْنافِ اللُّحومِ المُخْتَلِفَةِ . ولقد شَجَّعَني نَجاحي هذا على المُضِيِّ قُدُمًا فَشَكَّلْتُ صِينِيّاتِ طَبْخٍ خَزَفِيَّةً كَبيرَةً قُطْرُ الواحِدَةِ منها حَوالى قَدَمَيْنِ وعُمْقُها حَوالى تِسْعِ بوصاتٍ ، واسْتَطَعْتُ أنْ أسْتَخْدِمَها في خَبْزِ أرْغِفَةٍ مِنَ الشَّعيرِ وكَعْكاتٍ من الأرُزِّ وأنْواعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الحَلوى .

ثُمَّ أصْبَحْتُ بانِيَ قَوارِبَ

ما إنْ قارَبَ العامُ الثّالِثُ على الانْتِهاءِ حَتّى أحْسَسْتُ بالثِّقَةِ التّامَّةِ في أنّني كُنْتُ آمِنًا ، وفي إمْكانِيَّةِ أنْ أبْقى على قَيْدِ الحَياةِ . ولكِنْ بَيْنَ الفَيْنَةِ والفَيْنَةِ كانت تُحَدِّثُني نَفْسي بِأنَّني أسْتَطيعُ الوُصولَ إلى البَرِّ الرَّئيسيِّ وبالتّالي العَوْدَةَ إلى الحَضارَةِ . ولمّا كانَ البَحْرُ بِطَبيعَةِ الحالِ هو الوَسيلَةَ الوَحيدَةَ لِلْفِرارِ ، لذلِكَ عَقَدْتُ العَزْمَ على أنْ أبْنِيَ قارِبًا صَغيرًا بِعَمَلِ تَجْويفٍ في جِذْعِ شَجَرَةٍ .





لم أُقَدِّرْ كَثيرًا ضَخامَةَ العَمَلِ الّذي باشَرْتُهُ ، فقَدِ اسْتَغْرَقَ قَطْعُ شَجَرَةِ أَرْزٍ مُناسِبَةٍ مُدَّةَ عِشْرينَ يَوْمًا ، وأَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا آخَرَ لِقَطْعِ الأغْصانِ ولِتَهْذيبِ الجِذْعِ لِيَكونَ بَعْدَ ذلِكَ صالِحًا لِتَشْكيلِ القارِبِ .

لقد كان قُطْرُ الجِذْعِ يَزيدُ على خَمْسَةِ أقْدامٍ عِنْدَ طَرَفِهِ الغَليظِ وأَرْبَعَةِ أقْدامٍ عِنْدَ الطَّرَفِ الآخَرِ وطُولُهُ الكُلِّيُّ كان اثْنَيْنِ وعِشْرينَ قَدَمًا . وكان عليَّ أنْ أُجَوِّفَ الجِذْعَ بِاسْتِخْدامِ البَلْطَةِ والقَدّومِ ، ولكنْ في بَعْضِ الأحْيانِ كُنْتُ أَسْتَخْدِمُ النّارَ لِحَرْقِ داخِلِ الجِذْعِ . واسْتَغْرَقَ ذلك في الجُمْلَةِ أَرْبَعَةَ أشْهُرٍ من جَهْدٍ قاصِمٍ لِلظَّهْرِ حَتّى تَمَّ ذلِكَ العَمَلُ ، وعِنْدَئِذٍ بِالرَّغْمِ من أنّ ما أنْجَزْتُهُ كان غَيْرَ مُتْقَنِ الصُّنْعِ لِدَرَجَةٍ كَبيرَةٍ ، إلّا أنّهُ كان يَتَّسِعُ لِاثْني عَشَرَ رَجُلًا ومعهم مَخْزونٌ كافٍ مِنَ الأَمْتِعَةِ .

ولكنْ سُرْعانَ ما بَدَأتِ المَتاعِبُ تَتَلاحَقُ بِصورَةٍ جِدِّيَّةٍ ، ذلِكَ أنّ القارِبَ كان على بُعْدِ مائَةِ يارْدَةٍ مِنَ الكَهْفِ . وحاوَلْتُ في بِدايَةِ الأمْرِ أنْ أُدَحْرِجَهُ على جُذوعِ أَشْجارٍ مُقْتَطَعَةٍ فَوْقَ المُنْحَدَرِ الموصِلِ لِلْماءِ ، ولكنْ تَبَيَّنَ لي أنّني لم أَسْتَطِعْ تَحْريكَهُ قَدْرَ بوصَةٍ واحِدَةٍ . ثُمَّ فَكَّرْتُ في حَفْرِ مَجْرًى مائِيٍّ أو قَناةٍ ومَلْئِها بِالماءِ لأجْعَلَ القارِبَ يَجْري بِرِفْقٍ على سَطْحِ الماءِ حَتّى يَصِلَ إلى الخَليجِ . ولكنْ عِنْدَما أحْصَيْتُ كَمِّيَّةَ التُّرابِ الّذي سَأَسْتَخْرِجُهُ مِنَ الحَفْرِ تَبَيَّنَ لي أنّ تلك العَمَلِيَّةَ تَحْتاجُ إلى عَشْرِ سَنَواتٍ أو حَتّى اثْنَتَي عَشْرَةَ سَنَةً كي أُنْجِزَها بِجَهْدِيَ الخاصِّ ، ذلِكَ أنّ القَناةَ كان لا بُدَّ أن يَصِلَ عُمْقُها إلى ما لا يَقِلُّ عن عِشْرينَ قَدَمًا عِنْدَ قِمَّةِ المُنْحَدَرِ . لهذا تَخَلَّيْتُ عن تلك المُخاطَرَةِ على مَضَضٍ مع الشُّعورِ بِخَيْبَةِ أَمَلٍ كَبيرَةٍ . إلّا أنّي مع ذلِكَ أدْرَكْتُ مدى أهَمِّيَّةِ أنْ يَتَدَبَّرَ المَرْءُ كُلِّيَّةً أمْثالَ تلك المَشْروعاتِ قَبْلَ أنْ يُمْنى في تَنْفيذِها بِالفَشَلِ الذَّريعِ .



قُمْتُ بِحِياكَةِ مَلابِسي الخاصَّةِ

انْقَضَتِ الآنَ أَرْبَعُ سَنَواتٍ أو تَزيدُ . كانت مَلابِسي تَبْلى شَيْئًا فَشَيْئًا ، وقَدِ اسْتَخْدَمْتُ مُعْظَمَ القُمْصانِ والسُّتْراتِ الاحْتِياطِيَّةِ الّتي كُنْتُ قد جَلَبْتُها إلى الشّاطِئِ من حُطامِ السَّفينَةِ . لذلِكَ كانت مُهِمَّتي التّالِيَةُ أنْ أُزَوِّدَ نَفْسي بِمَلابِسَ جَديدَةٍ تُحاكُ من أَيِّ مادَّةٍ تَقَعُ عليها يَدايَ . وكُنْتُ بِالفِعْلِ قد جَمَعْتُ جُلودَ الحَيَواناتِ الّتي كُنْتُ أَصْطادُها لِطَعامي أو أَقْتُلُها دِفاعًا عَنِ النَّفْسِ ، ثُمَّ أُجَفِّفُها في الشَّمْسِ تَجْفيفًا تامًّا .

وكُنْتُ أُشَكِّلُ من بَعْضِ هذه الجُلودِ قَلَنْسُوَةً كَبيرَةً مُزَوَّدَةً بِفِراءٍ على وَجْهِها الخارِجِيِّ لِتَحْميني مِنَ الأَمْطارِ . ثُمَّ صَمَّمْتُ بعد ذلِكَ صُدْرِيَّةً بَسيطَةً مع سِرْوالٍ قَصيرٍ ، وذلِكَ أيْضًا أَثْبَتَ نَفْسَ الفاعِلِيَّةِ في حِمايَتي مِنَ الأَمْطارِ . أمّا بِالنِّسْبَةِ لِقَدَمَيَّ فقد صَنَعْتُ حِذاءً مِنَ الجِلْدِ كَبيرًا أو حِذاءً طَويلًا يَصِلُ إلى مُنْتَصَفِ السّاقِ ، وهذا الحِذاءُ ، وإنْ كان غَيْرَ لائِقٍ ، قد أَثْبَتَ أنَّهُ ذو فائِدَةٍ كَبيرَةٍ في حِمايَةِ قَدَمَيَّ مِنَ الصُّخورِ الحادَّةِ أوِ الأَشْواكِ وكُلِّ ما يُمْكِنُ أنْ يُؤْذِيَ القَدَمَيْنِ . أمّا بِالنِّسْبَةِ لأَشْهُرِ الشِّتاءِ المُمْطِرَةِ والأَكْثَرِ بُرودَةً فقد صَنَعْتُ مِعْطَفًا طَويلًا مِنَ الجِلْدِ يَصِلُ إلى أَسْفَلِ الرُّكْبَتَيْنِ . ولمّا لم يَكُنْ بِحَوْزَتي إبَرٌ لِلْحِياكَةِ مع ما يَكْفي مِنَ الخَيْطِ ، فقد كانت هذه المَلابِسُ تَفْتَقِرُ إلى الجَمالِ ، ولكِنَّها مع ذلِكَ تُؤَدّي الغَرَضَ من صُنْعِها .

ولقد شَجَّعَني نَجاحي في هذا المَجالِ على أنْ أَمْضِيَ قُدُمًا ، فصَنَعْتُ لِنَفْسي مِظَلَّةً مِنَ الجِلْدِ أيْضًا . وهذا الشَّيْءُ أَثْبَتَ أنَّ قيمَتَهُ لا تُقَدَّرُ حَيْثُ كانت تلك المِظَلَّةُ تَحْميني حِمايَةً تامَّةً مِنَ المَطَرِ ومن حَرارَةِ الشَّمْسِ . وكُنْتُ في أَحْيانٍ كَثيرَةٍ أَضْحَكُ حينَ أُفَكِّرُ في مَظْهَري كَخَيالِ المآتَةِ حَسْبَما يَراني كُلُّ مَنْ يُمْكِنُ أن يُلْقِيَ نَظْرَةً عَلَيَّ . ذلِكَ أنَّهُ لم تَكُنْ مَلابِسي شَيْئًا غَيْرَ مَأْلوفٍ وحَسْبُ بل إنَّني أيْضًا أَطْلَقْتُ لِحْيَتي مع شارِبٍ مُلْفِتٍ لِلنَّظَرِ .

أوَّلُ زَوْرَقٍ طَويلٍ بَنَيْتُهُ

مَرَّتِ الأَشْهُرُ والسِّنونَ مُرورًا سَريعًا . وحَلَّ العامُ السّادِسُ لي على الجَزيرَةِ وأنا مُسْتَمِرٌّ في هِمَّةٍ ونَشاطٍ مُؤَدِّيًا أعْمالِيَ اليَوْمِيَّةَ الخاصَّةَ بِالزِّراعَةِ – أَزْرَعُ وأَحْصُدُ مَحاصيلَ القَمْحِ ، وأُرَبّي ما أَمْلِكُ من قُطْعانِ الماعِزِ ومِنَ الطُّيورِ ، وأيْضًا أُمارِسُ الصَّيْدَ . وبِالرَّغْمِ مِمّا مُنيتُ به من فَشَلٍ في أنْ أَبْنِيَ لِنَفْسي قارِبًا ، ما تَخَلَّيْتُ يَوْمًا عن شُعوري بِالحاجَةِ إلى أنْ أَمْتَلِكَ نَوْعًا مِنَ المَراكِبِ لِيَنْقُلَني إلى عُرْضِ البَحْرِ . من أَجْلِ هذا شَرَعْتُ في بِناءِ زَوْرَقٍ طَويلٍ بَسيطٍ . في هذه المَرَّةِ ، وعلى بُعْدِ أَقَلَّ من نِصْفِ ميلٍ مِنَ الخَليجِ ، قَطَعْتُ جِذْعَ شَجَرَةٍ أَصْغَرَ مِمّا كُنْتُ قد قَطَعْتُهُ من قَبْلُ . وبِمُرورِ الوَقْتِ اسْتَطَعْتُ أنْ أَحْفِرَ قَناةً بِعَرْضِ سِتَّةِ أَقْدامٍ وعُمْقِ أَرْبَعَةٍ كي أَسْتَخْدِمَها في تَعْويمِ الزَّوْرَقِ إلى الخَليجِ . وقَدِ اسْتَغْرَقَ ذلِكَ مِنّي عامَيْنِ كامِلَيْنِ مِنَ العَمَلِ

الشاقّ الثابتِ. وكُنْتُ دائمًا مَدْفوعًا بِأَمَلٍ ليس فَقَطْ في أنْ أطوفَ بالزَّوْرَقِ حَوْلَ الجَزيرَةِ، ولكنْ رُبَّما أسْتَطيعُ أيْضًا أنْ أعْبُرَ الأرْبَعينَ ميلًا، في عُرْضِ البَحْرِ، وهِيَ الّتي تَفْصِلُنا عَنِ البَرِّ الرَّئيسيِّ الّذي كُنْتُ أسْتَطيعُ رُؤْيَتَهُ على مَدى البَصَرِ من وَقْتٍ لِآخَرَ. ولذلِكَ فَعِنْدما انْتَهَيْتُ من بِناءِ الزَّوْرَقِ شَغَلْتُ نَفْسي بِعَمَلِ صارٍ وبِتَشْكيلِ مَجْموعَةٍ مِنَ الأَشْرِعَةِ مُسْتَخْدِمًا القُماشَ الخاصَّ الّذي كُنْتُ أحْتَفِظُ به في مَخْزَني.

وأخيرًا جاءَ اليَومُ المَوْعودُ الّذي تَمَكَّنْتُ فيه مِنَ القِيامِ بِمُحاوَلَتي الأولى في الطَّوافِ حَوْلَ الجَزيرَةِ. ولمّا كُنْتُ أعْلَمُ من قَبْلُ أنّ هذا الطَّوافَ رُبّما يَسْتَغْرِقُ بِضْعَةَ أيّامٍ، لذلِكَ جَهَّزْتُ الزَّوْرَقَ بِما يَكْفيني من طَعامٍ وماءٍ وما يُمْكِنُ أنْ أحْتاجَ إليه من بَنادِقَ وذَخيرَةٍ، وحَمَيْتُها كُلَّها من أنْ تَتَعَرَّضَ لِمِياهِ البَحْرِ. وعِنْدَما أبْحَرْتُ مَسافَةً تَقْرُبُ من الميلِ بَعيدًا عَنِ الشّاطِئِ بَدَأْتُ أُدْرِكُ مَدى خُطورَةِ ما أقْدَمْتُ عليه، ذلِكَ أنّ تَيّاراتٍ عاتِيَةً هاجَمَتْني وحَمَلَتْني بَعيدًا في عُرْضِ البَحْرِ إلى مِياهٍ عَميقَةٍ جِدًّا. وقد مَلأَني ذلك رُعْبًا لأنّ نُزولَ الشَّبورَةِ وحُلولَ الضَّبابِ قد يَتَسَبَّبانِ بأنْ أضِلَّ طَريقي تَمامًا خاصَّةً وأنَّهُ لم يَكُنْ معي بوصلَةٌ لِتُحَدِّدَ ليَ الاتِّجاهَ المَنْشودَ.

وبَعْدَ ثَلاثَةِ أيّامٍ عَسيرَةٍ اسْتَطَعْتُ أنْ أتَجَنَّبَ التَّياراتِ وأنْ أُبْحِرَ في مَجْرًى سَليمٍ حَتّى تَمَكَّنْتُ مِنَ الدُّخولِ في خَليجٍ صَغيرٍ. وهُناكَ كان مِنَ اليَسيرِ عليَّ أنْ أرى العَمودَ الّذي كُنْتُ قد ثَبَّتُّهُ من قَبْلُ على الشّاطِئِ. وعَرَفْتُ الآنَ أيْنَ كُنْتُ، وبَعْدَ

راحَةٍ طَويلَةٍ اتَّخَذْتُ طَريقي إلى مَقَرِّيَ الصَّيْفِيِّ الّذي وَجَدْتُهُ في غايَةِ النَّظافَةِ والنِّظامِ. وبَعْدَ الأخْطارِ الّتي صادَفَتْني في رِحْلَتي قَرَّرْتُ أنْ أُخْفِيَ الزَّوْرَقَ بِالْقُرْبِ مِنَ الخَليجِ ثُمَّ أعودَ أدْراجي إلى حِصْنِيَ الرَّئيسيِّ على الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الجَزيرَةِ. وفي الوَقْتِ المُناسِبِ بَدَأَ يَحْدوني الأَمَلُ في أنْ أبْنِيَ زَوْرَقًا آخَرَ يكونُ أقْرَبَ إلى حِصْني، وبذلِكَ يَكونُ لديَّ زَوْرَقانِ على جانِبَي الجَزيرَةِ.

أجْرَيْتُ تَحْسيناتٍ على زِراعَتي

في أثْناءِ الإثْنَي عَشَرَ شَهْرًا التّالِيَةِ كُنْتُ أُواصِلُ فِلاحَةَ الأرْضِ وأرْفَعُ من مُسْتَوى مَهارَتي في الأعْمالِ المَنْزِلِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ. وقد مَكَّنَتْني عَجَلَةُ الخَزّافِ البَسيطَةُ جِدًّا الّتي صَنَعْتُها من أنْ أُشَكِّلَ قُدورًا وأكْوابًا أكْثَرَ جَمالًا من ذي قَبْل، وأهَمُّ من ذلِكَ فَلِمُتْعَتي الشَّخْصِيَّةِ اسْتَطَعْتُ أنْ أصْنَعَ غَلْيونًا جَيِّدًا.



وبِمُرورِ السِّنينَ – ذلِكَ أنّ اثْنَتَي عَشْرَةَ سَنَةً كانت قد انْقَضَتْ حِيْنَذاكَ – تَوَلّاني بَعْضُ الفَزَعِ عِنْدَما لاحَظْتُ أنّ مَخْزوني مِنَ البارودِ كان في نُقْصانٍ ، وكُنْتُ أُدْرِكُ أنّهُ لم تَكُنْ هُناكَ وَسيلَةٌ لِاسْتِكْمالِهِ . ولذلِكَ وَجَّهْتُ اهْتِمامي نَحْوَ اصْطِيادِ الحَيَواناتِ – كالماعِزِ والأرانِبِ البَرِّيَّةِ وغَيْرِها – عن طَريقِ نَصْبِ الفِخاخِ لها . وبَعْدَ أنْ مُنيتُ بالفَشَلِ أكْثَرَ من مَرَّةٍ اسْتَطَعْتُ في النِّهايَةِ أنْ أكْتَسِبَ المَهارَةَ اللّازِمَةَ . وفي الوَقْتِ نَفْسِهِ وَجَّهْتُ مَزيدًا مِنَ الاهْتِمامِ نَحْوَ تَرْبِيَةِ المَواشي . ولِأُحَقِّقَ ذلِكَ طَوَّقْتُ مِساحَةً كَبيرَةً مِنَ الأرْضِ بِسِياجٍ مِنَ الشُّجَيْراتِ وجَعَلْتُها حَظائِرَ أسوقُ إليها ما لديَّ من ماعِزٍ حَسْبَما تَقْضي الضَّرورَةُ . وبِمُرورِ الزَّمَنِ كان عِنْدي قَطيعٌ يَزيدُ على الخَمْسينَ حَيَوانًا . وهذه كانت تَمُدُّني دائِمًا بِمُدَّخَراتٍ كافِيَةٍ مِنَ اللُّحومِ في مُتَناوَلِ اليَدِ ، كما أنّ إناثَ الماعِزِ كانت أخيرًا تَمُدُّني بِجالونٍ من الحَليبِ يَوْمِيًّا مِمّا جَعَلَني أسْتَخْدِمُهُ في تَعَلُّمِ عَمَلِ القِشْدَةِ والجُبْنِ .

بَدَأَ أَكَلَةُ لُحومِ البَشَرِ يَظْهَرون

الآنَ أصِلُ إلى ما لم أكُنْ أتَوَقَّعُهُ مِمّا أحْدَثَ تَغْييرًا كَبيرًا في حَياتي . فَذاتَ صَباحٍ – وعلى شاطِئِ البَحْرِ – انْتابَتْني الدَّهْشَةُ إذ رَأَيْتُ بِمُنْتَهى الوُضوحِ أثَرًا لِقَدَمِ إنْسانٍ عارِيَةٍ . وَقَفْتُ مَشْدوهًا كما لو كُنْتُ أرى أمامي شَبَحًا . وبِمُنْتَهى الحَذَرِ تَطَلَّعْتُ حَوْلي وأنْصَتُّ جَيِّدًا دونَ أنْ أرى أو أسْمَعَ شَيْئًا . عِنْدَئِذٍ عُدْتُ أدْراجي إلى حِصْني وقد مُلِئْتُ رُعْبًا وفَزَعًا من جَرّاءِ ما رَأَيْتُ ، وانْتابَني هاجِسٌ أنّ بَعْضَ الزّائِرينَ – وقد يكونون مُتَوَحِّشينَ – قَدِ اكْتَشَفوا قارِبي أو رُبَّما بَيْتِيَ الصَّيْفِيَّ ، وراحوا لِيُخَطِّطوا لِعَوْدَتِهِم في أعْدادٍ أكْبَرَ .

وظَلَلْتُ قابِعًا بِغَيْرِ حَرَكَةٍ وأنا آمِنٌ في حِصْني ، ولكِنّي أدْرَكْتُ في الحالِ أنّ أمامي واجِباتِ فِلاحَةِ الأرْضِ والاهْتِمامِ بِقُطْعانِ الماشِيَةِ . وقد قَضَيْتُ وَقْتًا طَويلًا في فَحْصِ وتَقْوِيَةِ وَسائِلِ دِفاعي ، وفَتَحْتُ فُرَجًا في السّورِ المُحيطِ بِأرْضي لِأُطْلِقَ النّارَ خِلالَها من بَنادِقي عِنْدَ الضَّرورَةِ .



ومن قِمَّةِ الرَّبْوَةِ الّتي تَعْلو حِصْني أخَذْتُ أتَفَحَّصُ البَرَّ والبَحْرَ مُسْتَخْدِمًا مِنْظارِيَ المُقَرِّبَ الصَّغيرَ على أمَلِ أنْ أكْتَشِفَ أيَّ قَوارِبَ قد تَكونُ تَقْتَرِبُ مِنَ الجَزيرَةِ. وما إنْ عادَتْ إليَّ ثِقَتي وهُدوئي حَتّى أخَذْتُ أتَجَوَّلُ في مِنْطَقَتي بِحَذَرٍ. وذاتَ مَرَّةٍ – على الجانِبِ البَعيدِ مِنَ الجَزيرَةِ – وَقَعَ بَصَري على مَنْظَرٍ هَمَجِيٍّ رَهيبٍ جَعَلَ الدِّماءَ تَتَجَمَّدُ في عُروقي – ففي مَكانٍ صَغيرٍ خالٍ مِنَ الأشْجارِ بِالقُرْبِ مِنَ الشّاطِئِ وَجَدْتُ رَمادَ نارٍ خامِدَةٍ مُحاطَةٍ بِجَماجِمَ وعِظامٍ وأيادي وأقْدامٍ – كُلُّها لِأجْسادٍ بَشَرِيَّةٍ. إذًا كان هُناكَ عَدَدٌ من أكَلَةِ لُحومِ البَشَرِ على الجَزيرَةِ، وإنَّ ذلِكَ كان المَكانَ الّذي اخْتاروهُ لِوَليمَتِهِمِ المُقَزِّزَةِ.

مَعْقِلي الحَصينُ داخِلَ الكَهْفِ

لم أشْعُرْ بِالأمانِ أبَدًا بعد ذلِكَ، وطَوالَ العامَيْنِ التّالِيَيْنِ ظَلَلْتُ أُراقِبُ ما حَوْلي بِعَيْنٍ يَقِظَةٍ تَمامًا. ولم أشَأْ على الإطْلاقِ أنْ أتَجَوَّلَ بَعيدًا عن أيٍّ من حِصْنَيَّ الاثْنَيْنِ. وكَرَّسْتُ مَزيدًا مِنَ الوَقْتِ والعِنايَةِ لإخْفاءِ وُجودي ولِتَنْظيمِ وسائِلِ دِفاعي أكْثَرَ مِمّا كُنْتُ أفْعَلُ سابِقًا عند مُمارَسَتي لِأعْمالي اليَوْمِيَّةِ. وخَشيتُ أنْ أُطْلِقَ الرَّصاصَ كما لم أجْرُؤْ على إشْعالِ النّارِ. وبِمُنْتَهى الشِّدَّةِ الْتَزَمْتُ بالحَدِّ من حُرِّيَّةِ حَرَكَتي على الجَزيرَةِ. ولكنْ كان لِزامًا عليَّ أنْ أُدَبِّرَ وَسيلَةً آمِنَةً لِطَهْوِ طَعامي. ولِذا فقد وَجَّهْتُ اهْتِمامي إلى إعْدادِ فَحْمٍ نَباتِيٍّ يَمُدُّني بِنارٍ من غَيْرِ دُخانٍ. ولكي أحْصُلَ على هذا الفَحْمِ، أخَذْتُ أحْرُقُ بِبُطْءٍ عيدانًا مِنَ الخَشَبِ تَحْتَ طَبَقَةٍ من الأعْشابِ وكان ذلِكَ يَسْتَمِرُّ حَتّى يَتَحَوَّلَ الخَشَبُ إلى فَحْمٍ، تَمامًا كما كُنْتُ أفْعَلُ في إنجلترا في كَثيرٍ مِنَ الأحْيانِ أيّامَ شَبابي. وحَمِدْتُ اللهَ أنَّ هذه العَمَلِيَّةَ قد نَجَحَتْ وأنّني أصْبَحْتُ قادِرًا على الطَّهْوِ مَرَّةً ثانِيَةً في أمانٍ.

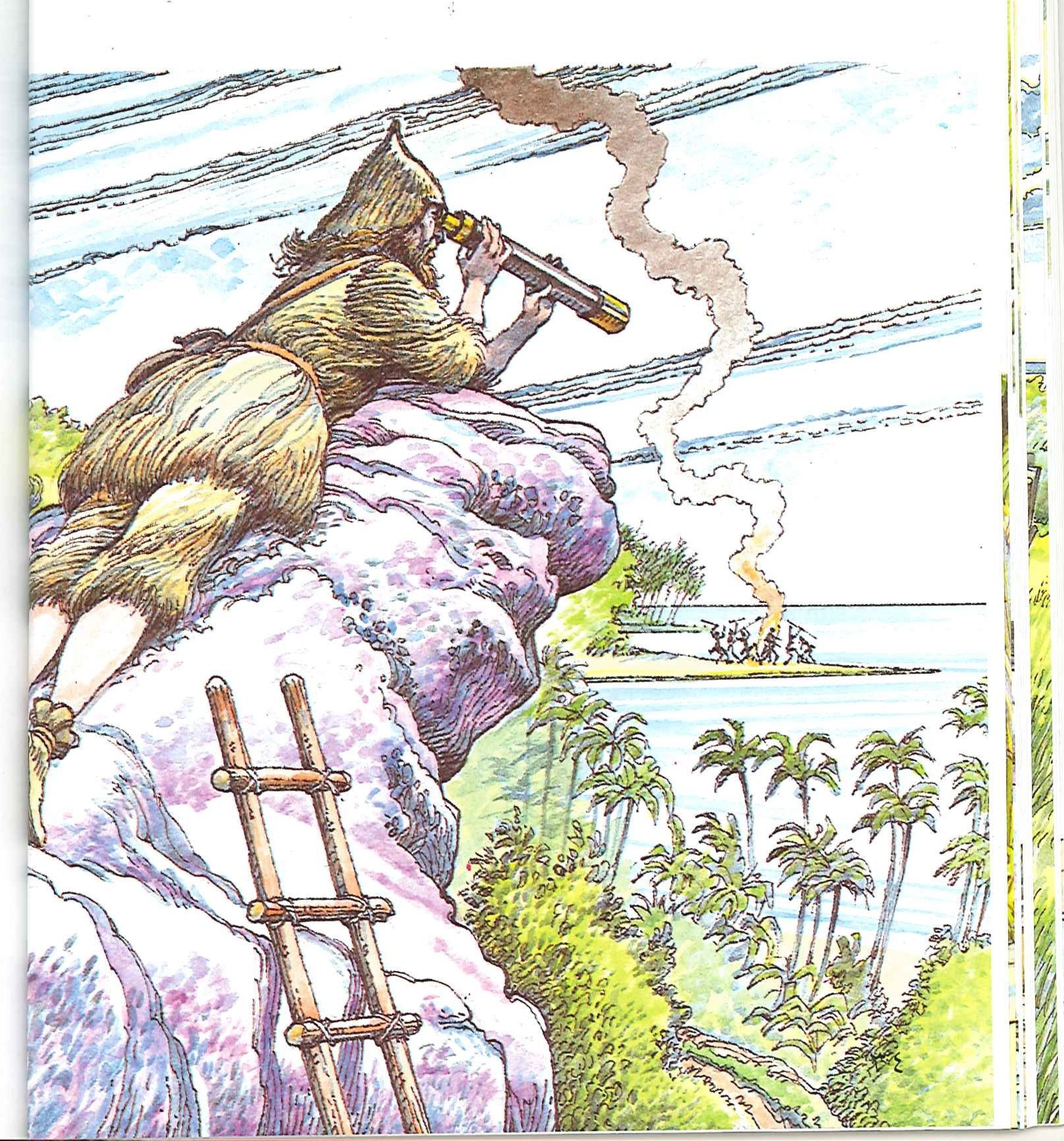
وذاتَ يَوْمٍ بَيْنَما كُنْتُ أقْطَعُ بَعْضَ أفْرُعِ الشَّجَرِ في دَغَلٍ يَقَعُ على بُعْدِ نِصْفِ ميلٍ تَقْريبًا من حِصْني، صادَفْتُ كَهْفًا صَغيرًا فَدَخَلْتُهُ لِأسْتَكْشِفَ ما فيه، ولاحَظْتُ أنَّ بِداخِلِهِ نَفَقًا يَمْتَدُّ طَويلًا داخِلَ الرَّبْوَةِ. من أجْلِ هذا قَرَّرْتُ أنْ أعودَ مَرَّةً ثانِيَةً بِشُموعٍ تُضيءُ لِيَ الطَّريقَ داخِلَ الكَهْفِ. وبَعْدَ أنْ زَحَفْتُ مَسافَةً على طولِ مَمَرٍّ



ضَيِّقٍ، وَجَدْتُ أنَّ النَّفَقَ يُؤَدّي إلى كَهْفٍ هائِلٍ يَبْلُغُ ارْتِفاعُهُ عِشْرينَ قَدَمًا.

أدْرَكْتُ على ضَوْءِ شَمْعَتي أنّني قد دَخَلْتُ مَكانًا ساحِرًا. كان حَوْلي في كُلِّ مَكانٍ آلافٌ مِنَ النِّقاطِ المُتَلألِئَةِ لِضَوْءٍ يَنْعَكِسُ من شَمْعَتي. وقد نَتَجَتْ هذه النِّقاطُ عن وُجودِ جُزَيْئاتٍ مَعْدِنِيَّةٍ صَغيرَةٍ جِدًّا في الصُّخورِ – ولست أدْري إنْ كانت من ذَهَبٍ أو مَعادِنَ ثَمينَةٍ أُخْرى. ولكن زادَ من أهَمِّيَّةِ اكْتِشافي لِأُعْجوبَةِ هذا المَنْظَرِ الرّائِعِ إدْراكي أنّ ذلِكَ الكَهْفَ الكَبيرَ يُمْكِنُ أنْ يَكونَ لي بِمَثابَةِ مَخْبَأٍ مَنيعٍ أسْتَطيعُ أنْ أجِدَ فيه الأمانَ من أيِّ قُوَّةٍ غازِيَةٍ.

بِناءً على ذلِكَ نَقَلْتُ إلى ذلِكَ الكَهْفِ بَعْضَ مَخْزوناتي الضَّروريَّةِ من طَعامٍ وبِطّيخٍ وعِنَبٍ وزَبيبٍ وماءٍ – ومعها كَمِّيَّةٌ لا بَأْسَ بها مِنَ الأَسْلِحَةِ كالبَنادِقِ مع ما يَكْفي من طَلَقاتٍ وبارودٍ. وكانَتِ التَّهْوِيَةُ في الكَهْفِ – على ما بَدا – كافِيَةً – وأَحْسَسْتُ بالاطْمِئْنانِ إلى أنَّهُ أصْبَحَ بِمَقْدوري أنْ أصْمُدَ في مَخْبَإي هذا لِفَتْرَةٍ مِنَ الوَقْتِ لا بَأْسَ بها فيما لو تَأَزَّمَتِ الأُمورُ.



بعد ذلِكَ نَعِمْتُ بِبِضْعِ سَنَواتٍ من الحياةِ الهادِئَةِ قُمْتُ خِلالَها بِتَنْمِيَةِ مَوارِدي وتَحْسينِ وَسائِلِ راحَتي دونَ أيِّ إزْعاجٍ من جانِبِ أكَلَةِ لُحومِ البَشَرِ أو أيِّ زائِرينَ آخَرينَ غَيْرِ مَرْغوبٍ فيهم. لقد كانَتِ الصُّحْبَةُ البَشَرِيَّةُ هي كُلُّ ما كُنْتُ في حاجَةٍ إليه لكي أنْعَمَ بِالسَّعادَةِ والرِّضى كأيِّ إنْسانٍ آخَرَ في الوُجودِ.

ولمّا كُنْتُ أفْتَقِدُ المُجْتَمَعَ البَشَرِيَّ، كان عليَّ أنْ أُنْشِئَ خَيْرَ صُحْبَةٍ مع پول – بَبَّغائي – ومع الهِرَّتَيْنِ وكذلِكَ مع ما كُنْتُ أقومُ بِتَرْبِيَتِهِ مِن ماعِزٍ وكِباشٍ – ومِمّا جَعَلَني أتَمَتَّعُ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ ما كُنْتُ أقومُ به من كَدْحٍ صادِقٍ مُخْلِصٍ. وكُنْتُ في أثْناءِ اللَّيالي الطَّويلَةِ أقْضي ساعَةً أو ساعاتٍ مُمْتِعَةً على ضَوْءِ شُموعي ومِصْباحي الّذي كان يُضاءُ بالشَّحْمِ، أقْضيها في كِتابَةِ يَوْمِيّاتي حتّى آخِرِ يَوْمٍ.

مَزيدٌ من أكَلَةِ لُحومِ البَشَرِ

ذاتَ صَباحٍ مع بِدايَةِ عامِيَ الثّالِثِ والعِشْرينَ على وجودي في الجَزيرَةِ لاحَظْتُ أنّ هُناكَ نارًا مُشْتَعِلَةً على الشّاطِئِ على بُعْدٍ مِنّي يَقْرُبُ من مِيلَيْنِ. وأصابَني الرُّعْبُ حينَ أدْرَكْتُ أنّ الهَمَجَ المُتَوَحِّشينَ قد جاءوا إلى جانِبِ الجَزيرَةِ حَيْثُ كان مَقامي وليس إلى الجانِبِ الآخَرِ كما فَعَلوا من قَبْلُ. فَتَجَهَّزْتُ على الفَوْرِ لِلدِّفاعِ عن نَفْسي بَعْدَ أنْ حَشَوْتُ كُلَّ ما كان لديَّ من بَنادِقَ ومُسَدَّساتٍ، وصَعِدْتُ إلى مِرْقَبي لِأرى ماذا كان يَجْري هُناكَ. وباسْتِخْدامِ مِنْظاري المُقَرِّبِ اسْتَطَعْتُ أنْ أرى تِسْعَةَ مُتَوَحِّشينَ عُراةً جالِسينَ حَوْلَ النّارِ، كما اسْتَطَعْتُ أنْ أرى الزَّوْرَقَيْنِ الخاصَّيْنِ بهم راسِيَيْنِ على الشّاطِئِ. وبَعْدَ أنْ قاموا بِبَعْضِ الحَرَكاتِ الغَريبَةِ والرَّقَصاتِ الهائِجَةِ أنْزَلوا زَوْرَقَيْهِم إلى الماءِ ثُمّ اسْتَقَلّوهُما ورَحَلوا.

وبِكُلِّ الحَذَرِ تَوَجَّهْتُ إلى حَيْثُ كانوا فَمُلِئْتُ رُعْبًا حينَ رَأَيْتُ دِماءً وعِظامًا وأجْزاءً من أجْسادٍ بَشَرِيَّةٍ مُبَعْثَرَةً هُنا وهُناكَ. وبَدا لي أنّ جَزيرَتي قد صارَتْ مَكانًا تُقيمُ به ولائِمَها قَبيلَةٌ من أكَلَةِ لُحومِ البَشَرِ. وحِرْصًا مِنّي على سَلامَتي أدْرَكْتُ أنّهُ كان لا بُدَّ لي أنْ أُهاجِمَ وأقْضِيَ على أيِّ جَماعَةٍ تالِيَةٍ تَنْزِلُ في مِنْطَقَتي.



حُطامُ سَفينَةٍ

خِلالَ العامِ والنِّصْفِ الّتي تَلَتْ ذلِكَ لم أَلْقَ مَزيدًا مِنَ الزّائِرينَ من هَؤلاءِ المُتَوَحِّشينَ ، ولكنْ حَدَثَ ما أصابَني بِذُهولٍ شَديدٍ . ففي إحْدى اللَّيالي طَرَقَ سَمْعي صَوْتُ طَلْقَةِ مِدْفَعٍ تَبِعَتْها ثَلاثُ طَلَقاتٍ أُخْرى . انْتَظَرْتُ حَتّى انْبَلَجَ الصَّباحُ فَصَعِدْتُ إلى مِرْقَبي ومعي مِنْظاري المُقَرِّبُ ، وهالَني ما رَأَيْتُ . كانت هُناكَ سَفينَةٌ إسْبانِيَّةٌ أو بُرْتُغالِيَّةٌ جانِحَةٌ على سِلْسِلَةٍ مِنَ الصُّخورِ في البَحْرِ ، وكانت هذه السَّفينَةُ تَتَحَطَّمُ بِبُطْءٍ ، وكان واضِحًا أنَّ بَحّارَتَها لا بُدَّ أنَّهُم فَرّوا بِزَوارِقِهِم ، ولكنّ الرِّياحَ القَوِيَّةَ العاتِيَةَ رُبَّما تَكونُ قد حَمَلَتْهُمْ بَعيدًا عن جَزيرَتي صَوْبَ البَرِّ الرَّئيسيِّ . وأَحْسَسْتُ بِخَيْبَةِ أَمَلٍ مَريرَةٍ لِعَدَمِ تَمَكُّني من لِقاءِ أُناسٍ كانَ يُمْكِنُ أنْ يُساعِدوني في العَوْدَةِ إلى بَلَدي . وفي الأُسْبوعِ نَفْسِهِ ، وبَعْدَ أنْ هَدَأَتِ الأَمْواجُ ، أَبْحَرْتُ بِقارِبي الصَّغيرِ إلى حُطامِ تلك السَّفينَةِ . وهُناكَ وَجَدْتُها سَفينَةً إسْبانِيَّةً قد دُفِعَتْ بِقُوَّةٍ بَيْنَ صَخْرَتَيْنِ هائِلَتَيْنِ من سِلْسِلَةِ الصُّخورِ الكائِنَةِ في مِياهِ البَحْرِ . ولقد كان الكائِنُ

الحَيُّ الوَحيدُ على ظَهْرِ السَّفينَةِ كَلْبًا أَخَذَ يَنبَحُ بِسُرورٍ حينَما رآني مُقْتَرِبًا نَحْوَ السَّفينَةِ ، ثُمَّ قَفَزَ في الماءِ وأَخَذَ يَسْبَحُ نَحْوي . ولقد أَثْبَتَ هذا الكَلْبُ أَنَّهُ صَديقٌ مُخْلِصٌ ورَفيقٌ وَفِيٌّ لِسَنَواتٍ طَويلَةٍ مُعَوِّضًا إيّايَ عن كَلْبي الأَصْلِيِّ الّذي ماتَ مُنْذُ ما يَزيدُ على خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا قَبْلَ ذلِكَ .

وما إنْ صَعِدْتُ على ظَهْرِ السَّفينَةِ المُحَطَّمَةِ حَتّى بَدَأْتُ أَبْحَثُ عن أيِّ مَخْزونٍ أو أيَّةِ مادَّةٍ نافِعَةٍ ، وفي الحالِ وَجَدْتُ عَدَدًا مِنَ الصَّناديقِ البَحْرِيَّةِ ، وغَلّايَةً نُحاسِيَّةً ، ومَجْموعَةً مِنَ الأَواني والمَقالي النُّحاسِيَّةِ ، وبَعْضَ المَلْبوساتِ ، وكيسًا مَمْلوءًا بِالعُمْلاتِ الذَّهَبِيَّةِ مع بَعْضِ سَبائِكَ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ . فَحَمَلْتُ كُلَّ هذه الأَشْياءِ سَليمَةً إلى الجَزيرَةِ ، ولكِنَّها لم تَكُنْ سوى ذِكْرى حَزينَةٍ للبِلادِ الّتي خَلَّفْتُها وَرائي عِنْدَما دَفَعَتْني طَبيعَتي العَنيدَةُ المُتَصَلِّبَةُ إلى الهُروبِ من بَيْتي قَبْلَ رُبْعِ قَرْنٍ مِنَ الزَّمانِ .

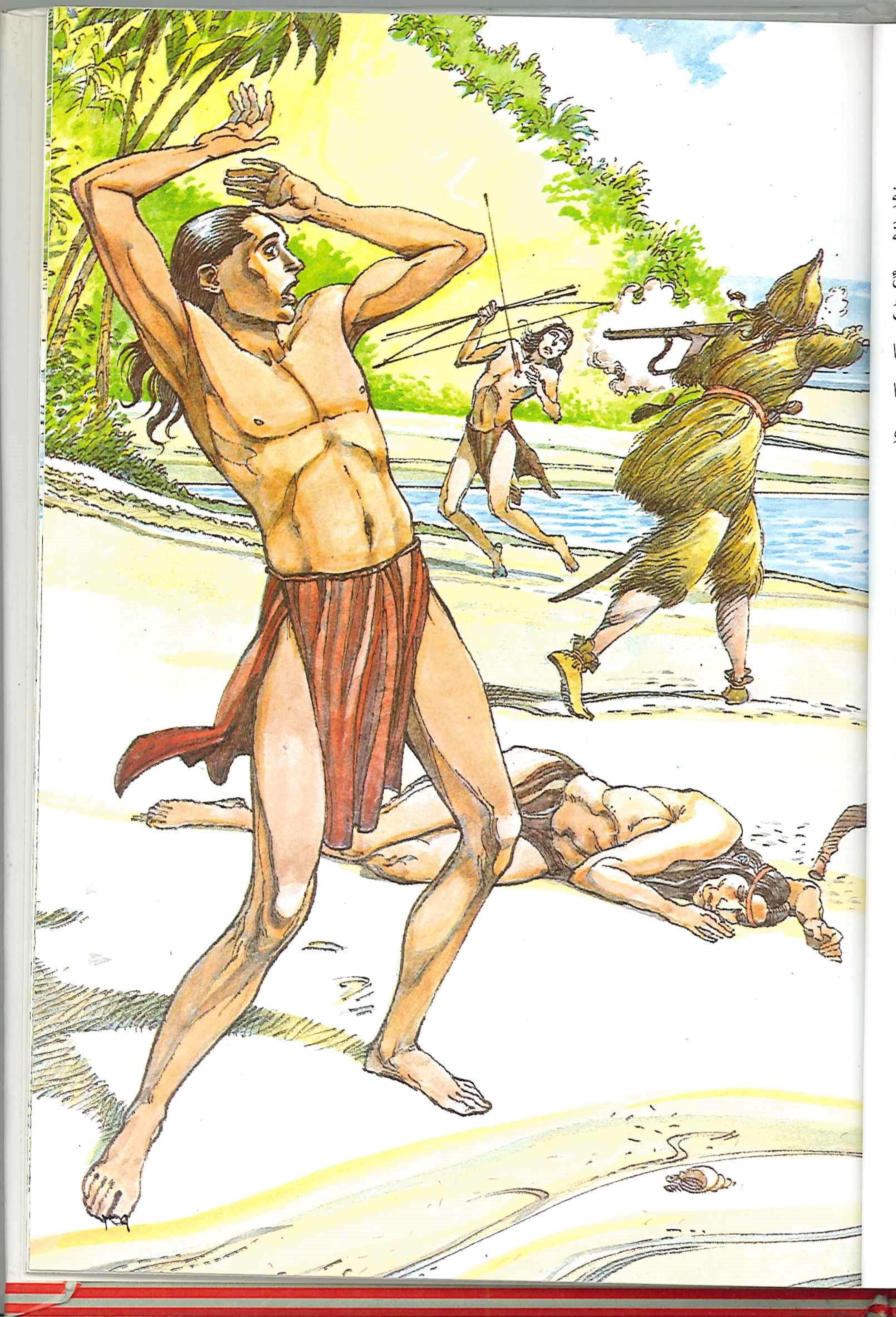
قِتالِيَ الأوَّلُ

أخَذْتُ بِصُورَةٍ مُنْتَظِمَةٍ أرْقُبُ مُراقَبَةً دَقيقَةً ظُهورَ أيِّ إشاراتٍ عن قُدومِ أكَلَةِ لُحومِ البَشَرِ. وحَدَثَ بَعْدَ مُرورِ حَوالى العامِ والنِّصْفِ بَعْدَ اكْتِشافي السَّفينَةَ الإسْبانِيَّةَ المُحَطَّمَةَ أنْ أحْسَسْتُ بالفَزَعِ يَنْتابُني لِرُؤْيَةِ خَمْسَةِ زَوارِقَ وقد رَسَتْ على الشّاطِئِ على بُعْدِ أقَلَّ من مِيلَيْنِ من حِصْني. وعن طَريقِ مِنْظاري المُقَرِّبِ شاهَدْتُ المُتَوَحِّشينَ وهم يَجُرّونَ اثْنَيْنِ مِنَ التُّعَساءِ خارِجَ زَوارِقِهِم. ثُمّ انْهالُوا على أحَدِهِما ضَرْبًا بالهِراواتِ حَتّى المَوْتِ، وبَعْدَها شَرَعوا في فَصْلِ أعْضاءِ جَسَدِهِ لِطَهْوِها. أما الآخَرُ فحينَ رَأى مَصيرَ رَفيقِهِ انْسَلَّ هارِبًا. وأخَذَ يَجْري بأقْصى سُرْعَةٍ في اتِّجاهِ مَوْقِعي مُتَقَدِّمًا عمَّن كانوا يَتْبَعونَهُ بِمَسافَةٍ طَويلَةٍ.

وتَمَلَّكَني خَوْفٌ شَديدٌ خَشْيَةَ أنْ تَشْتَرِكَ العِصابَةُ كُلُّها في مُحاوَلَةِ اللَّحاقِ بهذا التَّعِسِ، ولكِنْ لِحُسْنِ الحَظِّ كان هُناكَ ثَلاثَةٌ مِنْهُم فَقَط هُمُ الّذينَ واصَلوا المُطارَدَةَ. ووَصَلَ الهارِبُ إلى الخَليجِ حَيْثُ ألْقى بِنَفْسِهِ في الماءِ وأخَذَ يَسْبَحُ فيه بِسُهولَةٍ. وكان واضِحًا أنّ أحَدَ مُطارِدِيهِ لم يَكُنْ يُجيدُ السِّباحَةَ ولذلِكَ لم يَعْبُرِ الخَليجَ مع رَفيقَيْهِ الآخَرَيْنِ.

أدْرَكْتُ أنّ العِنايَةَ الإلهِيَّةَ قد مَنَحَتْني فُرْصَةً لإنْقاذِ ذلِكَ التَّعِسِ المِسْكينِ من مَوْتٍ رَهيبٍ، ورُبَّما أيْضًا لِتَوْفيرِ رَفيقٍ ومُعاوِنٍ لي يُسَلِّيني في وَحْدَتي حَتّى ولو كان هو نَفْسُهُ مِنَ المُتَوَحِّشينَ.

ولذلِكَ حَمَلْتُ بُنْدُقِيَّتَيْنِ وسَيْفًا ومُسَدَّسًا وصَعِدْتُ فَوْقَ السِّياجِ المُحيطِ بِبَيْتي مُتَّخِذًا لِنَفْسي على عَجَلٍ مَوْقِعًا بَيْنَ الضَّحِيَّةِ الهارِبِ ومُطارِدَيْهِ. وما إنِ اقْتَرَبَ المُتَوَحِّشانِ حَتّى انْدَفَعْتُ نَحْوَ أوَّلِهِما وضَرَبْتُهُ ضَرْبَةً قَوِيَّةً بِكَعْبِ بُنْدُقِيَّتي. عِنْدَئِذٍ تَوَقَّفَ الآخَرُ وأخْرَجَ قَوْسًا وسَهْمًا كي يَرْمِيَني به، فأطْلَقْتُ عليه النّارَ من بُنْدُقِيَّتي وأرْدَيْتُهُ قَتيلًا في الحالِ.



رَفيقي الجَديدُ

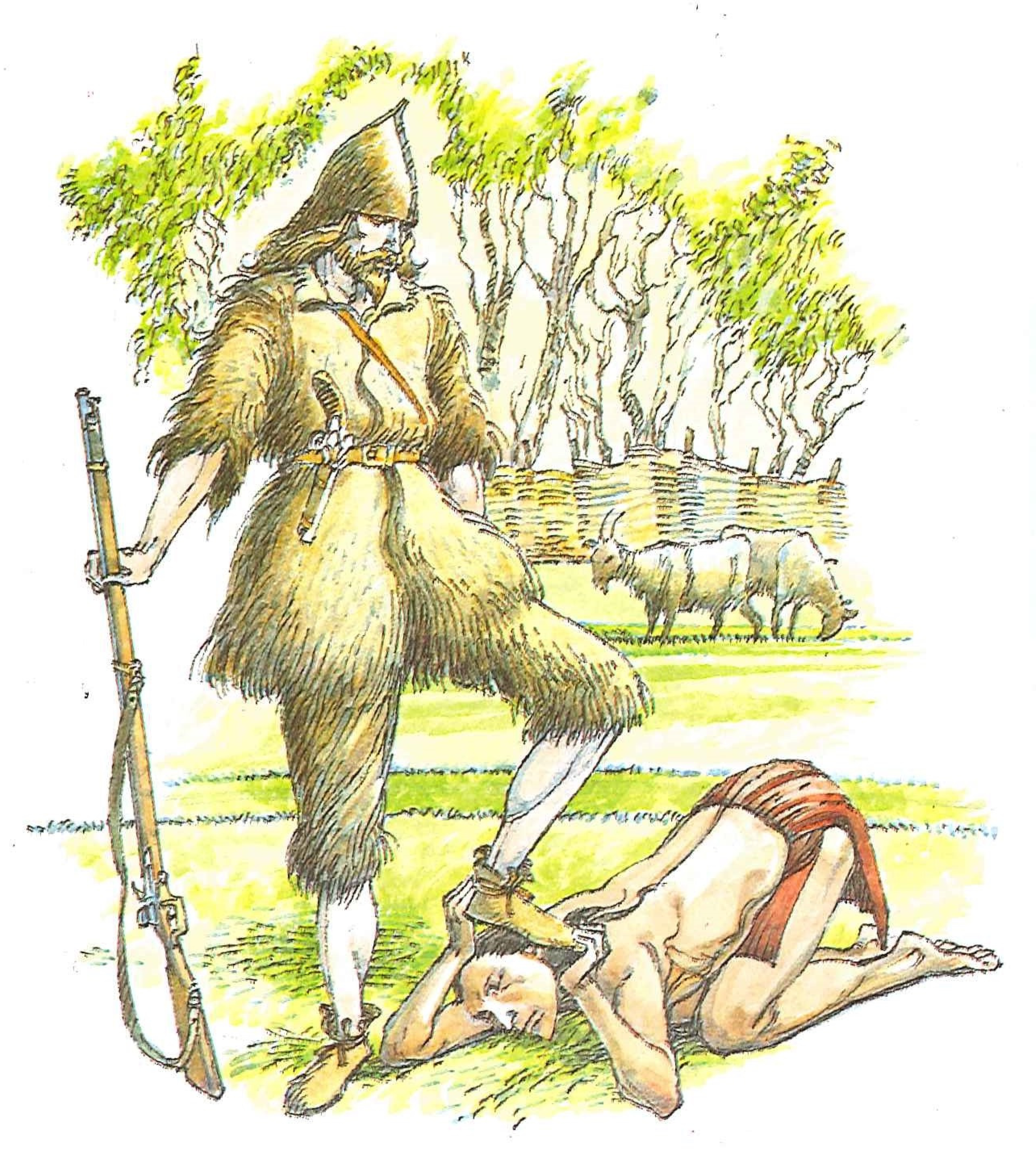
وتَوَقَّفَ الهَمَجِيُّ الهارِبُ وقَدِ اعْتَرَتْهُ الدَّهْشَةُ والحَيْرَةُ لِخَلاصِهِ، كما تَمَلَّكَهُ خَوْفٌ من سَماعِ دَوِيِّ رَصاصِ البُنْدُقِيَّةِ. فأَشَرْتُ إليه بِقَدْرِ ما اسْتَطَعْتُ من رِقَّةٍ مُحاوِلًا أنْ أُبَيِّنَ له أنَّني صَديقُهُ. ولهذا اقْتَرَبَ مِنّي بِبُطْءٍ وخَوْفٍ ورَكَعَ أمامي مُقَبِّلًا الأرْضَ ورافِعًا قَدَمي لِيَضَعَها فَوْقَ رأْسِهِ كَرَمْزٍ – فيما يَبْدو – يُبَيِّنُ لي أنَّهُ سَيَكونُ نِعْمَ التّابِعُ المُخْلِصُ مَدى الحَياةِ. وعِنْدَئِذٍ لاحَظْنا أنّ المُتَوَحِّشَ الأوَّلَ الّذي كُنْتُ قد ضَرَبْتُهُ بَدَأَ يفيقُ فما كان من رَفيقي إلّا أنْ أتى بِحَرَكاتٍ مَفادُها أنَّهُ يَرْجوني أنْ أُعْطِيَهُ سَيْفي، فَسَلَّمْتُهُ إيّاهُ. وسُرْعانَ ما انْدَفَعَ نَحْوَ المُتَوَحِّشِ الجَريحِ وبِضَرْبَةٍ واحِدَةٍ بالسَّيْفِ أطاحَ بِرَأْسِهِ. ثُمَّ عادَ إليَّ وقَدِ ارْتَسَمَتْ على وَجْهِهِ ابْتِسامَةُ النَّصْرِ، ووَضَعَ السَّيْفَ عِنْدَ قَدَمَيَّ بِجانِبِ رَأْسِ ضَحِيَّتِهِ الدّامِيَةِ – مِمّا أثارَ رُعْبي واشْمِئْزازي. وقَبْلَ أنْ نُغادِرَ المكانَ أمَرْتُهُ أنْ يَدْفِنَ الجُثَّتَيْنِ. ثُمَّ شَعَرْنا بالارْتِياحِ التّامِّ عِنْدَما شاهَدْنا الزَّوارِقَ الخَمْسَةَ تُقْلِعُ في اتِّجاهِ البَرِّ الرَّئيسيِّ مِمّا جَعَلَني أُدْرِكُ أنّ المُتَوَحِّشينَ قد أصابَهُمُ الفَزَعُ عِنْدَ سَماعِهِمْ دَوِيَّ بُنْدُقِيَّتي.

ولكي أتَجَنَّبَ الكَشْفَ عن مَوْقِعِ حِصْني الرَّئيسيِّ قَرَّرْتُ أنْ أتَوَجَّهَ إلى حِصْني الآخَرِ الصَّغيرِ. وهُناكَ قَدَّمْتُ لِرَفيقي المِسْكينِ طَعامًا وشَرابًا وسَمَحْتُ له بأنْ يَنامَ الْتِماسًا لِبَعْضِ الرّاحَةِ بَعْدَ العَناءِ الشَّديدِ. وحينَ تَأَمَّلْتُهُ رَأَيْتُ فيه شابًّا أنيقًا، طَويلَ القامَةِ، قَوِيَّ البِنْيَةِ، ويَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ حوالى سِتَّةٍ وعِشْرينَ عامًا. وكان مَليحَ الوَجْهِ بِغَيْرِ شَراسَةٍ ولا وَحْشِيَّةٍ. كما أنّ عَيْنَيْهِ كانَتا تشِعّانِ بالذَّكاءِ، وكان ثَغْرُهُ حينَ يَبْتَسِمُ يَفْتَرُّ عن أسْنانٍ بَيْضاءَ جَميلَةٍ. ولم يَكُنْ أسْوَدَ اللَّوْنِ بل كان يَتَمَتَّعُ بِلَوْنٍ زَيْتونيٍّ جَذّابٍ، وكان أنْفُهُ صَغيرًا ولَيْسَ عَريضًا واسِعًا.

اسْتَيْقَظَ بَيْنَما كُنْتُ أقومُ بِحَلْبِ الماعِزِ، فَجاءَني مُهَرْوِلًا وَهُوَ يَبْتَسِمُ ورَكَعَ أمامي. ومَرَّةً ثانِيَةً رَفَعَ قَدَمي ووَضَعَها على رَأْسِهِ كَعَلامَةٍ من عَلاماتِ الخُضوعِ لي. ولكِنّي رَفَعْتُهُ ورَبَتُّ عليه بِحَنانٍ، وحاوَلْتُ أنْ أُبَيِّنَ لَهُ أنّي أَعْتَبِرُهُ بِمَثابَةِ الصَّديقِ والرَّفيقِ وليس عَبْدًا رَقيقًا. ومُنْذُ ذلِكَ الوَقْتِ أطْلَقْتُ عليه اسْمَ فرايداي (جُمُعَة) حَيْثُ إنّ ذلِكَ اليَوْمَ كان هو اليَوْمَ الّذي أنْقَذْتُ فيه حَياتَهُ.

الحَياةُ الجَديدَةُ لفرايداي

لقد كان فرايداي يَتَمَتَّعُ بِذَكاءٍ حادٍّ، كما كان سَريعَ الاسْتِجابَةِ لِلتَّعَلُّمِ، لذلِكَ لم يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى بَدَأَ يَعْرِفُ أسْماءَ الأشْياءِ عن طَريقِ تَكْرارِها بَعْدَ سَماعِها مِنّي. وفي جَميعِ الأوْقاتِ كان يَبْدو تَوّاقًا لِمُساعَدَتي ويَعْمَلُ كُلَّ ما يَبْعَثُ السُّرورَ في نَفْسي.



في اليَوْمِ التّالي عِنْدَما عُدْنا أدْراجَنا إلى حِصْني الرَّئيسيِّ صَنَعْتُ خَيْمَةً خاصَّةً لفرايداي بَيْنَ السِّياجِ الخارِجيِّ والحائِطِ الدّاخِلِيِّ ، وكُنْتُ أرْفَعُ السُّلَّمَ الخَشَبِيَّ في كُلِّ لَيْلَةٍ حَتّى لا يَتَمَكَّنَ فرايداي من التَّسَلُّقِ إلى مِخْدَعي . فَعَلْتُ ذلِكَ في بِدايَةِ الأمْرِ ضَمانًا لِسَلامَتي . ولكنْ تَبَيَّنَ لي بَعْدَ وَقْتٍ قَصيرٍ أنّي لم أكُنْ في حاجَةٍ إلى تلك الاِحْتِياطاتِ ، فإنني لم أَعْرِفْ شَخْصًا أَشَدَّ منه إخلاصًا وتفانيًا . ومِمّا لا شَكَّ فيه أنَّه كان على أتَمِّ الاِسْتِعْدادِ لأنْ يُضَحِّيَ بِحَياتِهِ من أجْلي .

فرايداي يُنيرُ لِي الطَّريقَ

لم أفْتَأْ أتَساءَلُ في دَهْشَةٍ لماذا خَلَقَ اللهُ البَشَرَ في هذا العالَمِ شُعوبًا وقَبائِلَ كَثيرَةً مُخْتَلِفَةَ الأشْكالِ والألْوانِ وذَوي عَقائِدَ وأعْرافٍ وعاداتٍ مُتَبايِنَةٍ . ومع ذلِكَ فدونَ هذه الاِخْتِلافاتِ هُناكَ إنْسانِيَّةٌ ثابِتَةٌ مُشْتَرَكَةٌ تَتَمَثَّلُ فيما يَتَمَتَّعُ به الجَميعُ من العَواطِفِ نَفْسِها ومَشاعِرِ الحُبِّ والإخْلاصِ والعِرْفانِ بالجَميلِ نَفْسِها الّتي تُعَبِّرُ عن نَفْسِها على الفَوْرِ عِنْدَما تَحينُ الفُرْصَةُ المُناسِبَةُ . وكثيرًا ما كنتُ أَعْجَبُ لِرُؤْيَةِ صَديقي المُتَوَحِّشِ أشدَّ تَجاوُبًا مع المُعامَلَةِ الحَسَنَةِ من الكَثيرينَ مِمَّنْ كُنْتُ أَعْرِفُهُم في البِلادِ التي جِئْتُ منها .

لقد كان فرايداي نِعْمَ المُسْتَجيبُ لإرْشاداتي وتَوْجيهاتي ، لذلِكَ جَعَلْتُ من أوَّلِ واجِباتي نَحْوَهُ أنْ أُعَوِّدَهُ على تَناوُلِ اللُّحومِ الحَيَوانِيَّةِ . ومن أجْلِ هذا اصْطَحَبْتُهُ معي ذاتَ يَوْمٍ لاصْطِيادِ الماعِزِ البَرِّيِّ . وما إنِ اصْطَدْتُ واحِدَةً حَتّى أصابَهُ الفَزَعُ وتَمَلَّكَتْهُ الحَيْرَةُ حينَ اسْتَمَعَ إلى الدَّوِيِّ الشَّديدِ ، ورأى الماعِزَ تَسْقُطُ مَيْتَةً على بُعْدِ ثَلاثينَ يارْدَةً . وحَمَلْناها إلى حِصْني حَيْثُ طَهَوْنا جُزْءًا منها في مَطْبَخي . وكان تَناوُلُ هذا اللَّحْمِ مُفاجَأَةً له . ثُمَّ لم يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى كان قد شُفِيَ تَمامًا من شَهْوَتِهِ إلى تَناوُلِ اللَّحْمِ البَشَرِيِّ .





لم أتوانَ لَحظَةً واحدَةً في بَذْلِ كُلِّ جَهْدٍ لِتَعْليمِ فرايداي مَبادِئَ الأخْلاقِ كما نَفْهَمُها . ثُمَّ بِبَعْضِ الصُّعوباتِ حاوَلْتُ أنْ أجْعَلَهُ يَفْهَمُ فِكْرَةَ الخَيْرِ والشَّرِّ ، واسْتِنادًا على ذلِكَ وَجَّهْتُهُ إلى فِكْرَةِ وُجودِ اللهِ وكذلِكَ وجودِ الشَّيْطانِ . وكان ذلِكَ أمْرًا عَسيرًا حَيْثُ كانت مُحاوَلَةُ إفْهامِهِ تَتِمُّ عن طَريقِ اسْتِخْدامِ ألْفاظٍ بَسيطَةٍ مُدَعَّمَةٍ بِبَعْضِ الإيماءاتِ والصُّوَرِ .

أخَذَ فرايداي يَتَأمَّلُ كُلَّ ذلِكَ لِمُدَّةٍ طَويلَةٍ وَهُوَ في حَيْرَةٍ شَديدَةٍ ، وبَذَلَ جَهْدًا جَبّارًا وهُوَ يُجاهِدُ لِيَسْألَ سُؤالًا في لُغَةٍ إنجليزِيَّةٍ بِدائِيَّةٍ ورَكيكَةٍ اسْتَطَعْتُ أنْ أتَبَيَّنَ ، بعد مُحاوَلاتٍ مُتَكَرِّرَةٍ لِفَهْمِ ما يَقولُ ، أنّها كانت شَيْئًا ما مِثْلَ :

« لِماذا لم يُدَمِّرِ اللهُ الشَّيْطانَ ويَجْعَلِ الخَيْرَ يَنْتَصِرُ على الشَّرِّ في هذا الوُجودِ إلى الأبَدِ دونَ أيِّ مُحاوَلَةٍ مِنَ الشَّرِّ لِتَحَدّي الخَيْرِ ؟ » وظَلَّ يُكَرِّرُ سُؤالَهُ هذا ، ولا بُدَّ لي أن أُقِرَّ بِعَجْزي عن مَعْرِفَةِ جوابٍ له . لهذا أسْرَعْتُ بِتَغْييرِ المَوْضوعِ وكَلَّفْتُهُ بِالقِيامِ بِبَعْضِ الأعْمالِ لأصْرِفَ انْتِباهَهُ . وفي الوَقْتِ نَفْسِهِ دَعَوْتُ اللهَ أنْ يُنيرَ بَصيرَتي ويَمْنَحَني الحِكْمَةَ كي أتَمَكَّنَ في الوَقْتِ المُناسِبِ مِنَ الرَّدِّ على سُؤالِ فرايداي بِصورَةٍ مُرْضِيَةٍ .

وأخَذْنا نُخَطِّطُ لِلْهَرَبِ

مَرَّتِ الأعْوامُ الثَّلاثَةُ التّالِيَةُ ونحن – فرايداي وأنا – نَعيشُ في صُحْبَةٍ سَعيدَةٍ . لقد أضاف فرايداي جَمالًا لا حَدّ له إلى حَياتي من حَيْثُ أنّ فَهْمَهُ لِلُّغَةِ الإنجليزِيَّةِ قد تَحَسَّنَ بِدَرَجَةٍ كَبيرَةٍ مِمّا مَكَّنَني من أنْ أُحَدِّثَهُ عن تاريخِ حَياتي ، وعن أحْداثٍ كانت مَعْروفَةً في العالَمِ . وأثْناءَ مُحادَثاتِنا البَسيطَةِ اسْتَطاعَ أن يَرْوِيَ أنَّ سَفينَةً كانت قد تَحَطَّمَتْ بَعيدًا عَنِ البَرِّ الرَّئيسيِّ مُنْذُ أرْبَعِ سَنَواتٍ ، وأنَّهُ مع مُواطِنيهِ تَمَكَّنوا من إنْقاذِ سَبْعَةَ عَشَرَ مِنَ الرِّجالِ البيضِ لم يَزالوا يَعيشون بَيْنَهم أحْرارًا دونَ أنْ يَتَعَرَّضَ لهم أحَدٌ . هذه المَعْلومَةُ المُشَوِّقَةُ جَدَّدَتْ لَدَيَّ الرَّغْبَةَ في أنْ أفِرَّ إلى البَرِّ الرَّئيسيِّ . وأبْدى فرايداي اسْتِعْدادَهُ لِمُرافَقَتي لو كان ذلِكَ مُمْكِنًا .

وكان واضحًا أنّني كُنْتُ في حاجَةٍ إلى زَوْرَقٍ كَبيرٍ كي أتَمكَّنَ بِواسِطَتِهِ مِنَ القِيامِ بالعُبورِ إلى البَرِّ الرَّئيسيِّ رَغْمَ ما في هذا العُبورِ من أخْطارٍ. هذا الزَّوْرَقُ لن يَكونَ كَبيرًا بِدَرَجَةٍ يَصْعُبُ عليَّ معها أنْ أُنزِلَه إلى الماءِ كما أثْبَتَتْ تَجْرِبَتي الأولى، ولكنْ يكونُ أكْبَرَ من زَوْرَقي الصَّغيرِ. ولهذا قُمْنا – فرايداي وأنا – بِقَطْعِ شَجَرَةٍ مُناسِبَةٍ وجَوَّفْناها وحَرَقْناها مِنَ الوَسَطِ داخِلَ التَّجْويفِ، ثُمَّ شَكَّلْنا الهَيْكَلَ. وبَعْدَ عَمَلٍ شاقٍّ اسْتَغْرَقَ أكْثَرَ من شَهْرٍ كان لَدَيْنا مَرْكَبٌ مَتينٌ يُمْكِنُ أنْ يَحْمِلَ خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا إذا لَزِمَ الأمْرُ. ثُمَّ أعْدَدْنا الصّارِيَ والدَّفَّةَ والأشْرِعَةَ لِلْمَرْكَبِ. وأخيرًا بِجُهودِنا المُشْتَرَكَةِ نَجَحْنا – فرايداي وأنا – في دَحْرَجَةِ المَرْكَبِ على بِساطٍ من جُذوعِ الأشْجارِ إلى حافَّةِ الماءِ.

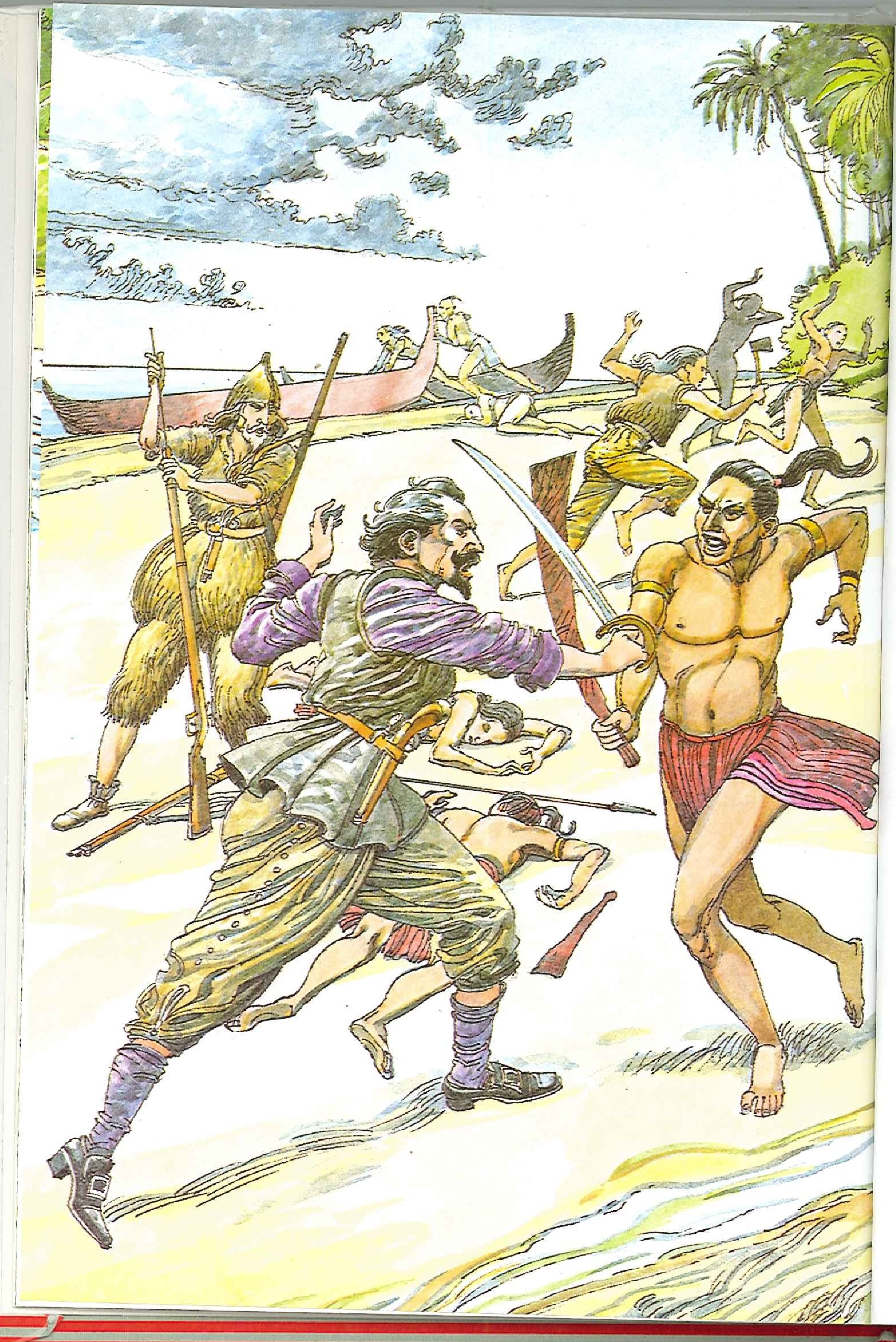
كان قد مَضى عليَّ فَوْقَ الجَزيرَةِ أكْثَرُ من سِتَّةٍ وعِشْرينَ عامًا. وبَدا لي أخيرًا أنّني أصْبَحْتُ قابَ قَوْسَيْنِ أو أدْنى مِنَ الرَّحيلِ عَنْها إلى الأبَدِ. وبَعْدَ أن أكْمَلْنا كُلَّ ما يَتَعَلَّقُ بِالمَرْكَبِ تَرَكْناه في الحِفْظِ والصَّوْنِ خِلالَ الشُّهورِ المُمْطِرَةِ، وانْتَظَرْنا حُلولَ شَهْرَيْ نوفمبر وديسمبر حَيْثُ قَدَّرْتُ أنَّهُ خِلالَهُما يُصْبِحُ في الإمْكانِ القِيامُ بِرِحْلَةٍ آمِنَةٍ.

مَعْرَكَتُنا الكُبْرى

قَبْلَ أنْ نَضَعَ خُطَّتَنا مَوْضِعَ التَّنْفيذِ حَدَثَ حادِثٌ مُدْهِشٌ لِلْغايَةِ. ففي صَباحِ أحَدِ الأيّامِ جاءَني فرايداي مُهَرْوِلًا وَهُوَ يَصيحُ: «سَيِّدي! يا لَلأَسَفِ! أمْرٌ سَيِّئٌ! أمْرٌ سَيِّئٌ! جاءَتْ ثَلاثَةُ زَوارِقَ». وتَطَلَّعْتُ بِمِنْظارِيَ المُقَرِّبِ لِأكْتَشِفَ أنَّهُ كانت هُناكَ بِالفِعْلِ ثَلاثَةُ زَوارِقَ تَقْتَرِبُ مِنَ الشّاطِئِ، وعلى مَتْنِها حَوالى عِشْرينَ شَخْصًا من بَيْنِهِم ثَلاثَةٌ كان مَنْظَرُهُم يُوحي بِأنَّهُمْ أسْرى. لذلِكَ أسْرَعْنا – فرايداي وأنا – بِحَشْوِ بَنادِقَ ومُسَدَّساتٍ، وسَلَّحْنا أنْفُسَنا فَوْقَ ذلِكَ بالسُّيوفِ والفُؤوسِ القَصيرَةِ.

وعِنْدَما رَأَيْنا الزَّوارِقَ تَرْسو في الخَليجِ تَسَلَّلْنا إلى الدَّغَلِ المُطِلِّ على مَوْقِعِهِم. ولمّا زادَ قُرْبُنا مِنْهُم رَأيْتُ أنَّ أحَدَ الأسْرى كان رَجُلًا أبْيَضَ. وحينَ زَحَفْنا إلى حافَّةِ الدَّغَلِ وَجَدْنا أنَّنا صِرْنا على بُعْدِ ثَمانينَ يارْدَةً مِنَ المُتَوَحِّشينَ.




أعْطَيْتُ أوامِري لفرايداي وهُوَ بِجانِبي ألّا يُصَوِّبَ بُنْدُقِيَّتَهُ ويُطْلِقَ النّارَ إلّا بِإذْنٍ مِنّي. ثُمّ كانت طَلْقَتُهُ الأولى الّتي قَتَلَتِ اثْنَيْنِ مِنَ المُتَوَحِّشينَ وجَرَحَتْ ثَلاثَةً آخَرينَ. أمّا طَلْقَتي فَقَتَلَتْ واحِدًا وجَرَحَتِ اثْنَيْنِ غَيْرَهُ. وقد بَعَثَ هُجومُنا المُفاجِئُ الرُّعْبَ والفَزَعَ في نُفوسِ المُتَوَحِّشينَ، وقَبْلَ أنْ يفيقوا مِنَ الصَّدْمَةِ رَفَعْنا – فرايداي وأنا – بَنادِقَنا وأطْلَقْناها على أُولَئِكَ الرِّعاعِ الّذينَ كانوا يَعْوونَ كالذِّئابِ، فَقَتَلْنا اثْنَيْنِ مِنْهُم وجَرَحْنا الكَثيرينَ. وكانَ هَؤلاءِ يَقْفِزونَ هُنا وهُناكَ ويَصْرُخونَ كما يَصْرُخُ المَجانينُ. ثُمَّ الْتَقَطْنا بَنادِقَنا الأُخْرى المَحْشُوَّةَ بِالرَّصاصِ ورُحْنا نُطْلِقُها على الّذينَ كانوا يَصْرُخونَ، وفي نَفْسِ الوَقْتِ نَضْرِبُ بِالهِراواتِ كُلَّ مَنْ كان يَقِفُ في طَريقِنا. وكانتِ النَّتيجَةُ أنّ بَعْضَ هَؤلاءِ المُتَوَحِّشينَ أسْرَعوا بِالفِعْلِ إلى زَوارِقِهِم في مُحاوَلَةٍ لِلْفِرارِ.

أَسْرَعْتُ أُحَرِّرُ الرَّجُلَ الأبْيَضَ – وكان إسْبانِيًّا – من قُيودِهِ. ودَفَعَهُ ابْتِهاجُهُ بِالخَلاصِ الّذي تَمَّ بِمُعْجِزَةٍ إلى أنْ يَرْجُوَني أن أُعْطِيَهُ سَيْفي فَفَعَلْتُ. وسُرْعانَ ما انْدَفَعَ وَسْطَ المُتَوَحِّشينَ وأعْمَلَ سِلاحَهُ فيهم قَتْلًا وتَدْميرًا. وكان فرايداي أيْضًا سَبّاقًا إلى القِتالِ حَيْثُ انْدَفَعَ وسطَ أكَلَةِ لُحومِ البَشَرِ مُسْتَخْدِمًا فَأْسَهُ في القِتالِ.

وبعدَ أنْ قَضَيْنا على كُلِّ مُقاوَمَةٍ أخَذْنا نُحْصي نَتائِجَ المَعْرَكَةِ: سَبْعَةَ عَشَرَ قُتِلوا، وأرْبَعَةٌ هَرَبوا في زَورَقٍ وبَعْضُهُم كانوا جَرْحى، وهؤلاء كانوا كلّ أفْرادِ الجماعَةِ الّذينَ خاطَروا بِالنُّزولِ على جَزيرَتي. لقد كان نَصْرًا كَبيرًا. غَيْرَ أنّ فرايداي لم يَكُنْ قانِعًا بذلِكَ، فَتَوَسَّلَ إليَّ أنْ نَتَعَقَّبَ العَدُوَّ الهارِبَ في واحِدٍ من زَوارِقِهِ.

حين اقْتَرَبْنا مِنَ الزَّوْرَقِ أُصِبْنا بِدَهْشَةٍ كَبيرَةٍ إذ رَأَيْنا أسيرًا آخَرَ مُقَيَّدًا بِيَدَيْهِ وقَدَمَيْهِ في الزَّوْرَقِ. فأسْرَعْنا نَفكُّ قُيودَهُ، ثُمَّ بَدا فرايداي فَجْأَةً كَمَن فَقَدَ عَقْلَهُ، فلم يَكُنْ ذلك الأسيرُ سوى أبيهِ بِذاتِهِ! وعانَقَهُ فرايداي وبَكى ثُمّ ضَحِكَ وأخَذَ يَرْقُصُ هُنا وهُناكَ، وكان مُنْفَعِلًا بِالفَرْحَةِ تَمامَ الانْفِعالِ.



أخَذَ مُجْتَمَعُنا يَنْمو

لقد أصْبَحَ عِنْديَ الآنَ في مَمْلَكَتي رَعِيَّةٌ من ثَلاثَةِ أفْرادٍ مُخْلِصينَ. وأولئِكَ كانوا يَنْظُرون إليَّ على أنَّني سَيِّدُهُمُ المُطْلَقُ. وكان مِمّا لَفَتَ نَظَري أنَّهُم لم يَكونوا على دينٍ واحِدٍ بل يَنْتَمونَ إلى ثَلاثَةِ أدْيانٍ ومَذاهِبَ مُخْتَلِفَةٍ: كان رَجُلي، فرايداي، الّذي كان قد تَقَبَّلَ مُعْتَقَداتي نِعْمَ المَسيحِيُّ البروتِسْتانْتِيُّ. وكان أبوهُ مُلْحِدًا وواحِدًا من أكَلَةِ لُحومِ البَشَرِ. أمّا الإسْبانِيُّ فقد كان كاثوليكِيًّا يَتْبَعُ بابا الفاتيكان في روما. ومع ذلِكَ فقد سَمَحْتُ بِحُرِّيَّةِ المُعْتَقَدِ في تلك الأرْضِ الّتي كانت تَخْضَعُ لِسَيْطَرَتي. وكانت نَتيجَةُ ذلِكَ أنّنا جَميعًا عِشْنا جَنْبًا إلى جَنْبٍ في سَلامٍ وَوِئامٍ ليس لهما نَظيرٌ. وكان ذلِكَ – فيما أعْتَقِدُ – دَرْسًا عَمَلِيًّا لِكُلِّ الدُّنْيا بلا اسْتِثْناءٍ.

لكنّ هذه الحالَةَ مِنَ الكِبَرِ المُتَغَطْرِسِ سُرْعانَ ما تَحَطَّمَتْ على صَخْرَةِ الشَّكِّ القاسي الّذي هاجَمَني على الفَوْرِ. أَلَمْ أُظْهِرِ الشُّعورَ بِالضّيقِ نَحْوَ فرايداي المِسْكينِ بِسَبَبِ نَزَعاتِهِ كواحِدٍ من أكَلَةِ لُحومِ البَشَرِ؟ ثُمَّ ألم أسْعَ إلى تَحْويلِهِ عن دينِهِ؟ أَوَلَمْ يَكُنْ من واجِبي أيْضًا أنْ أُؤَثِّرَ على أبيهِ بالطَّريقَةِ نَفْسِها؟ وأقولُها بِكُلِّ إخْلاصٍ إنّ طَريقَ الحاكِمِ بِأَمْرِهِ طَريقٌ شاقٌّ.

لقد ناقَشْنا إمْكانِيَّةَ تَوْجيهِ الدَّعْوَةِ إلى السِّتَّةَ عَشَرَ إسْبانِيًّا المَوْجودينَ على البَرِّ الرَّئيسيِّ لِيَأْتوا إلينا ويَنْضَمّوا إلى مُجْتَمَعِنا على الجَزيرَةِ. ولكِنّنا أدْرَكْنا أنّ ذلِكَ أمْرٌ لا يُمْكِنُ تَحْقيقُهُ حَتّى نَخْزُنَ كَمِّيّاتٍ كافِيَةً مِنَ القَمْحِ والأرُزِّ، وأعْدادًا من رُؤوسِ الماشِيَةِ كي نَتَمَكَّنَ من إطْعامِ مِثْلِ هَذا العَدَدِ الكَبيرِ مِنَ الأفْواهِ الإضافِيَّةِ، ومن أجْلِ هذا وَضَعْنا في الاِعْتِبارِ أنْ نُولِيَ في العامِ التّالي اهْتِمامًا خاصًّا بتلك المُهِمّاتِ ولِزِيادَةِ الإنْتاجِ بِشَكْلٍ عامٍّ.

وبِحُلولِ أواخِرِ الخَريفِ قَدَّرْنا أنَّهُ يُمْكِنُنا – ونحنُ مُطْمَئِنّونَ – أنْ نُرْسِلَ والِدَ فرايداي ومعه الإسْبانِيُّ لِيُبَلِّغا دَعْوَتَنا إلى الإسْبانِيِّينَ السِّتَّةَ عَشَرَ شَريطَةَ أنْ يَكونوا على اسْتِعْدادٍ لِتَأْدِيَةِ القَسَمِ بِالوَلاءِ لِسُلْطَتي العُلْيا. ولهذا رَحَلَ الرَّجُلانِ في أحَدِ القَوارِبِ الّتي اسْتَوْلَيْنا عليها من أكَلَةِ لُحومِ البَشَرِ، وزَوَّدْناهُما بالقَدْرِ الكافي مِنَ الطَّعامِ والماءِ كما سَلَّحْناهُما بالبَنادِقِ. وتَمَّ الاِتِّفاقُ على ضَرورَةِ عَوْدَتِهِما في خِلالِ ثَمانِيَةِ أيّامٍ ومعهما الرَّدُّ على دَعْوَتي.

قِتالُ المُتَمَرِّدينَ

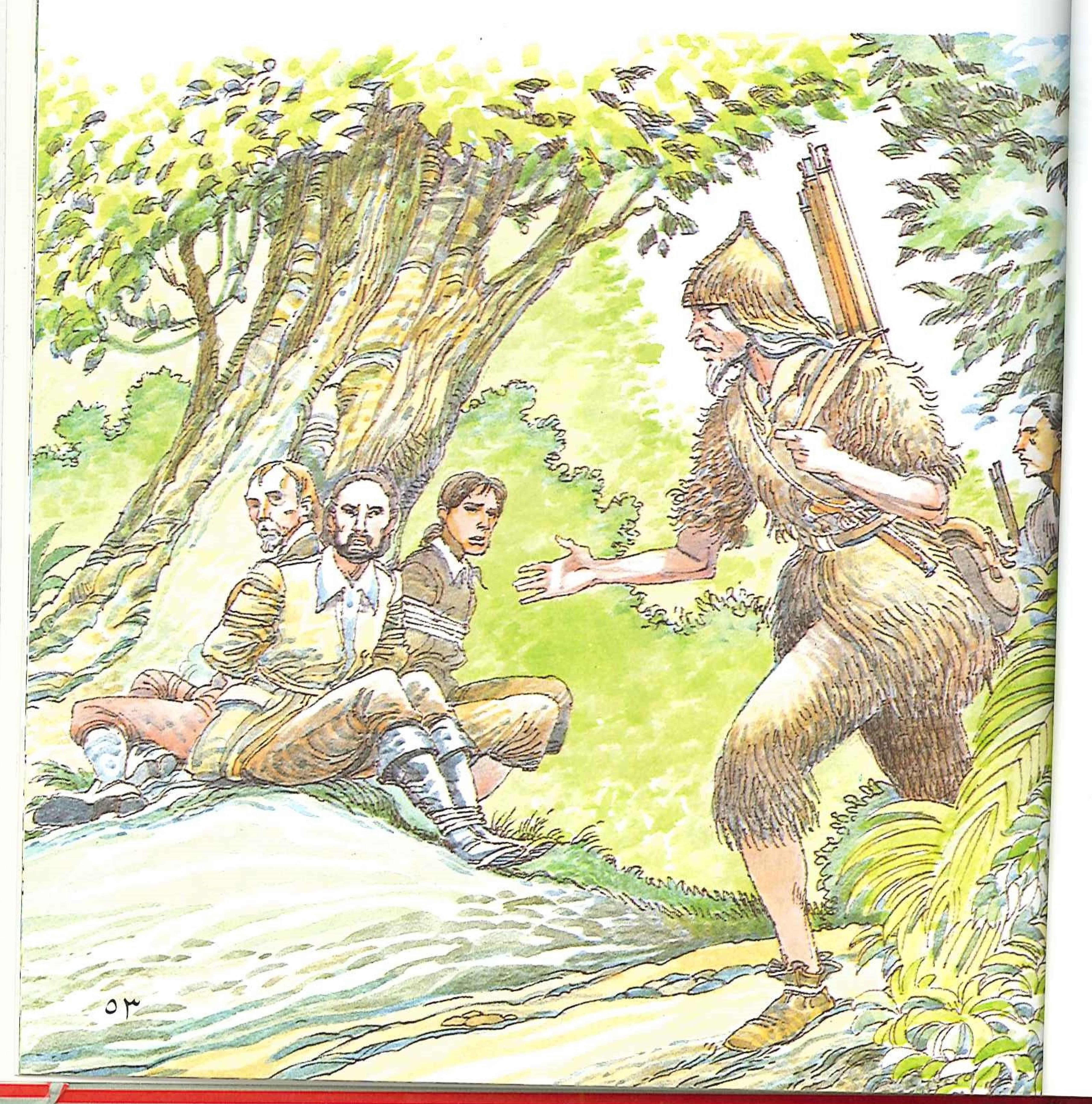
وقَبْلَ أنْ يَحينَ مَوْعِدُ عَوْدَتِهِما بقَليلٍ جاءَ فرايداي مُهَرْوِلًا وهو يَصيحُ: «سَفينَةٌ! سَفينَةٌ!» فأسْرَعْتُ بِالصُّعودِ إلى مِرْقَبي، وبِمِنْظاري المُقَرِّبِ أمْكَنَني أنْ أرى بِوُضوحٍ تامٍّ سَفينَةً راسِيَةً على بُعْدِ نَحْوِ فَرْسَخَيْنِ، وكان على جانِبِها قارِبٌ طَويلٌ. وكانت فَرْحَتي بِغَيْرِ حُدودٍ عِنْدَما تَبَيَّنَ لي أنّها سَفينَةٌ تِجارِيَّةٌ إنجليزِيَّةٌ. ولكِنّي كُنْتُ أشْعُرُ بِعَدَمِ الارْتِياحِ تُجاهَها دونَ أنْ يَكونَ هُناكَ سَبَبٌ واضِحٌ لذلِكَ. وعليه فَقَدِ اتَّخَذْتُ قَرارًا يَقْضي بأنْ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ أُراقِبَ تَحَرُّكاتِ البَحّارَةِ.

وتَحَرَّكَ القارِبُ الطَّويلُ صَوْبَ الخَليجِ، واسْتَطَعْتُ أنْ أرى على مَتْنِهِ أحَدَ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ البيضِ. فلَمّا قَفَزوا إلى البَرِّ دُهِشْتُ إذ لاحَظْتُ أنّ ثَلاثَةَ رِجالٍ من أفْرادِ هذه الجَماعَةِ كانوا مُكَبَّلين كَأسْرى. وكان فرايداي مَشْدوهًا حينَ افْتَرَضَ أنّ الأسْرى الثَّلاثَةَ كانوا مَسوقينَ إلى حَيْثُ يَلْتَهِمُهُم الآخَرونَ. كان أفْرادُ الجَماعَةِ قد نَزَلوا إلى البَرِّ وَقْتَ ارْتِفاعِ المَدِّ، وبَيْنَما كانوا يَتَجَوَّلون هُنا وهُناكَ انْخَفَضَ المَدُّ تارِكًا القارِبَ الطَّويلَ على الأَرْضِ. وكان الرَّجلانِ اللّذانِ تُرِكا لِحِراسَةِ القارِبِ فيما بَدا – قَدِ اسْتَغْرَقا في نَوْمٍ عَميقٍ. وكان الأسْرى الثَّلاثَةُ التُّعَساءُ قد جُمِعوا في ظِلِّ شَجَرَةٍ بَعْدَ أنْ قُيِّدوا بإحْكامٍ بَيْنَما أخَذَ البَحّارَةُ السِّتَّةُ الباقونَ يَجولونَ هُنا وهُناكَ لِيَتَفَحَّصوا الخَطَّ السّاحِلِيَّ والأدْغالَ.

وسُرْعانَ ما عَزَمْتُ على أنْ أبْدأ سَبيلَ العَمَلِ. وعلى ذلِكَ حَمَلْنا – فرايداي وأنا – مِنَ البَنادِقِ والمُسَدَّساتِ المَحْشُوَّةِ ما اسْتَطَعْنا حَمْلَهُ وزَحَفْنا في سُكونٍ تامٍّ وسَطَ الأدْغالِ حَتّى وَصَلْنا إلى حَيْثُ كان الأسْرى الثَّلاثَةُ قاعِدينَ بِقُيودِهِمْ تَحْتَ الأشْجارِ. ولمّا ازْدادَ قُرْبي مِنْهُم نَهَضْتُ فَجْأَةً ووَقَفْتُ في مُواجَهَتِهِمْ وأنا أضْحَكُ في قَرارَةِ نَفْسي حينَ تَصَوَّرْتُ كيف كُنْتُ أبْدو لهم في صورَةِ شَبَحٍ غَريبٍ.

خاطَبْتُهُم في هُدوءٍ قائِلًا: «كيف حالُكُم أيُّها السّادَةُ؟ إنّني صَديقٌ جاءَ لِيُساعِدَكُم ولِيُنْقِذَكُم من أعدائِكُم. ما هي مُشْكِلَتُكُم؟»

فلَمّا أفاقوا من دَهْشَتِهِم أخْبَروني أنّ أحَدَهُم كان رُبّانَ السَّفينَةِ، وأنّ الثّاني كان وَكيلَهُ. أمّا الثّالِثُ فكان مُسافِرًا. ثُمَّ حَدَثَ تَمَرُّدٌ على ظَهْرِ السَّفينَةِ، وكان ما قَرَّرَهُ المُتَمَرِّدونَ هو أنْ يُلْقوا بِهَؤُلاءِ الثَّلاثَةِ على شاطِئِ الجَزيرَةِ ويُقْلِعوا هم بالسَّفينَةِ. وأخْبَروني أيْضًا أنّ جَماعَةَ المُتَمَرِّدينَ لم يَكُنْ بِحَوْزَتِهِم سوى سِلاحَيْنِ نارِيَّيْنِ صَغيرَيْنِ تَركوا واحِدًا منهما مع الحُرّاسِ في القارِبِ الطَّويلِ.



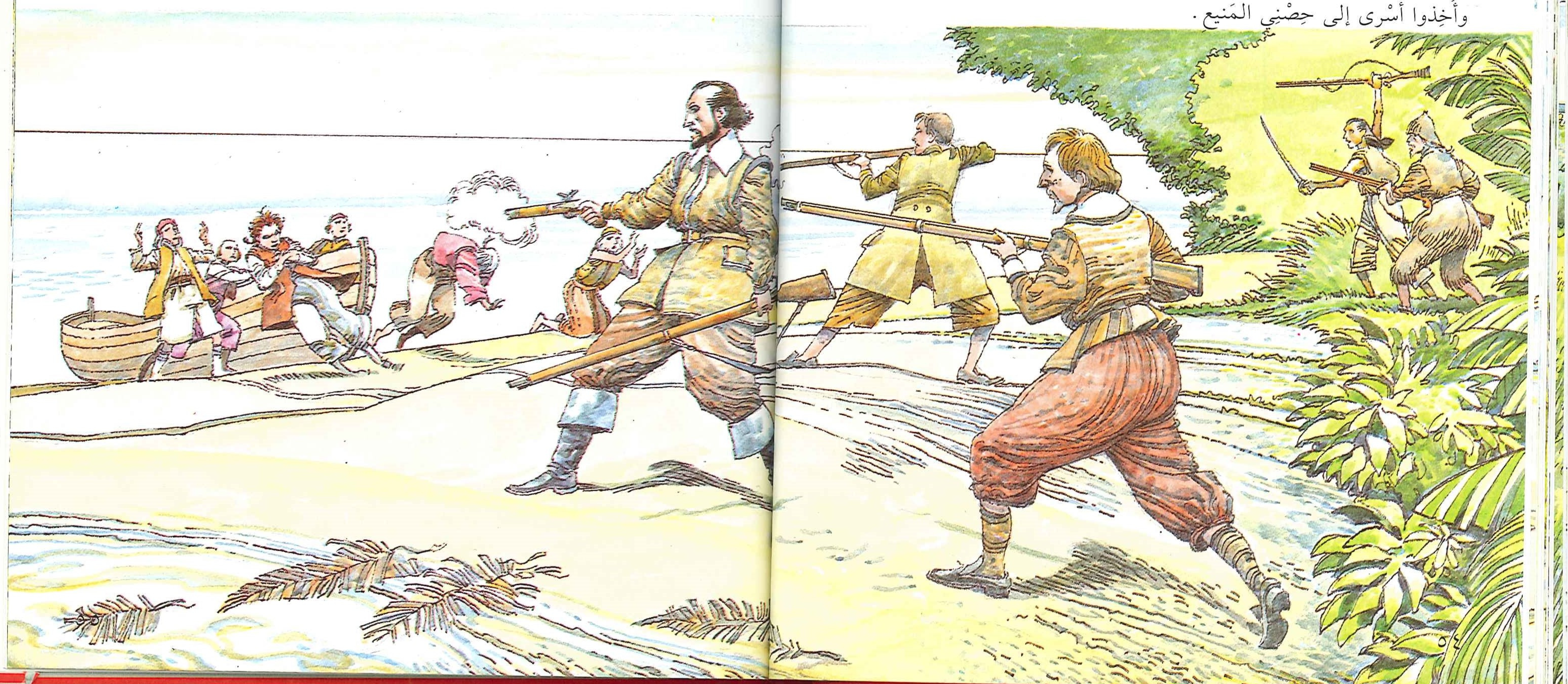
صَدَّقْتُ روايَتَهُم، ولهذا طَلَبْتُ منهم أن يُقْسِموا يَمينَ الوَلاءِ ويَعِدوا بأنْ يَحْمِلوني وفرايداي معهم إلى إنجلترا إذا أنْقَذْتُهُم واسْتَعَدْنا السَّفينَةَ مِنَ المُتَمَرِّدينَ. ولمّا وافَقوا بِكُلِّ سُرورٍ على ما طَلَبْتُ، قُمْتُ بِفَكِّ قُيودِهِم وسَلَّمْتُ كُلًّا منهم بُنْدُقِيَّةً. وكان الرُّبّانُ عازِفًا عن قَتْلِ بَحّارَتِهِ السّابِقينَ في هُجُومٍ مُفاجِئٍ لأنّ بعضَهم، كما أَخْبَرَنا، كانوا رُفَقاءَ أُمَناءَ قامَ اثْنانِ من عُتاةِ الأوْغادِ المُجْرِمينَ بِتَهْديدِهِم وبَثِّ الرُّعْبِ في نُفوسِهِم.

وعلى ذلِكَ نَصَبْنا كَمينًا وانْتَظَرْنا فيه عَوْدَةَ المُتَمَرِّدينَ السِّتَّةِ إلى القارِبِ الطَّويلِ. وما إنِ اقْتَرَبوا حتّى صَوَّبَ الرُّبّانُ بُنْدُقِيَّتَهُ بِدِقَّةٍ نحو أحَدِ الأوْغادِ فأرْداهُ قَتيلًا بِطَلْقَتِهِ الأولى، وأصابَ آخَرَ وهُوَ زَعيمُ التَّمَرُّدِ بِجُرْحٍ خَطيرٍ بِطَلْقَتِهِ الثّانِيَةِ ثُمّ انْدَفَعَ نَحْوَهُ وقَضى عليه بِضَرْبَةٍ هَمَجِيَّةٍ عَنيفَةٍ من كَعْبِ بُنْدُقِيَّتِهِ. أمّا الأرْبَعَةُ الآخَرونَ – وقد أرْبَكَهُم وأضْعَفَ مَعْنَوِيّاتِهِم هُجومُنا المُفاجِئُ – فَقَدِ اسْتَسْلَموا في الحالِ وأُخِذوا أسْرى إلى حِصْني المَنيعِ.

انْقَضَتْ ساعاتٌ قَليلَةٌ قَبْلَ أنْ نَرى جَماعَةً مِنَ البَحّارَةِ جاءوا مِنَ السَّفينَةِ مُجَدِّفينَ إلى الشّاطِئِ بِهَدَفِ البَحْثِ – كما كان واضِحًا – عن أصْحابِهِمِ المَفْقودينَ. وباسْتِخْدامِ مِنْظاري المُقَرِّبِ قَدَّرْتُ عَدَدَ هَؤلاءِ الباحِثينَ بِعَشَرَةِ رِجالٍ. وطِبْقًا لما ذَكَرَهُ الرُّبّانُ كان هُناكَ سِتَّةَ عَشَرَ رَجُلًا آخَرينَ لا يَزالون على ظَهْرِ السَّفينَةِ الرّاسِيَةِ.

كَمينٌ خَدّاعٌ

رَسَمْتُ خُطَّةً على وَجْهِ السُّرْعَةِ لِلتَّعامُلِ مع أُولئِكَ الدُّخَلاءِ الجُدُدِ، عِنْدَما رَأيْتُ أرْبَعَةً منهم يَنْزِلون بالفِعْلِ على البَرِّ، بَيْنَما ظَلَّ السَّبْعَةُ الآخَرونَ في حِراسَةِ القارِبِ. ثُمَّ أصْدَرْتُ أمْري إلى فرايداي ووَكيلِ الرُّبّانِ بأنْ يَقْتَرِبوا وَسْطَ الأدْغالِ من مَكانِ نُزولِ أُولئِكَ الرِّجالِ، ثُمَّ يَصيحونَ ويَهْتِفونَ كما لو كانوا يُنادونَ أصْدِقاءَ لهم نَزَلوا حَديثًا إلى البَرِّ بِهَدَفِ اسْتِدْراجِهِم إلى داخِلِ الأدْغالِ.

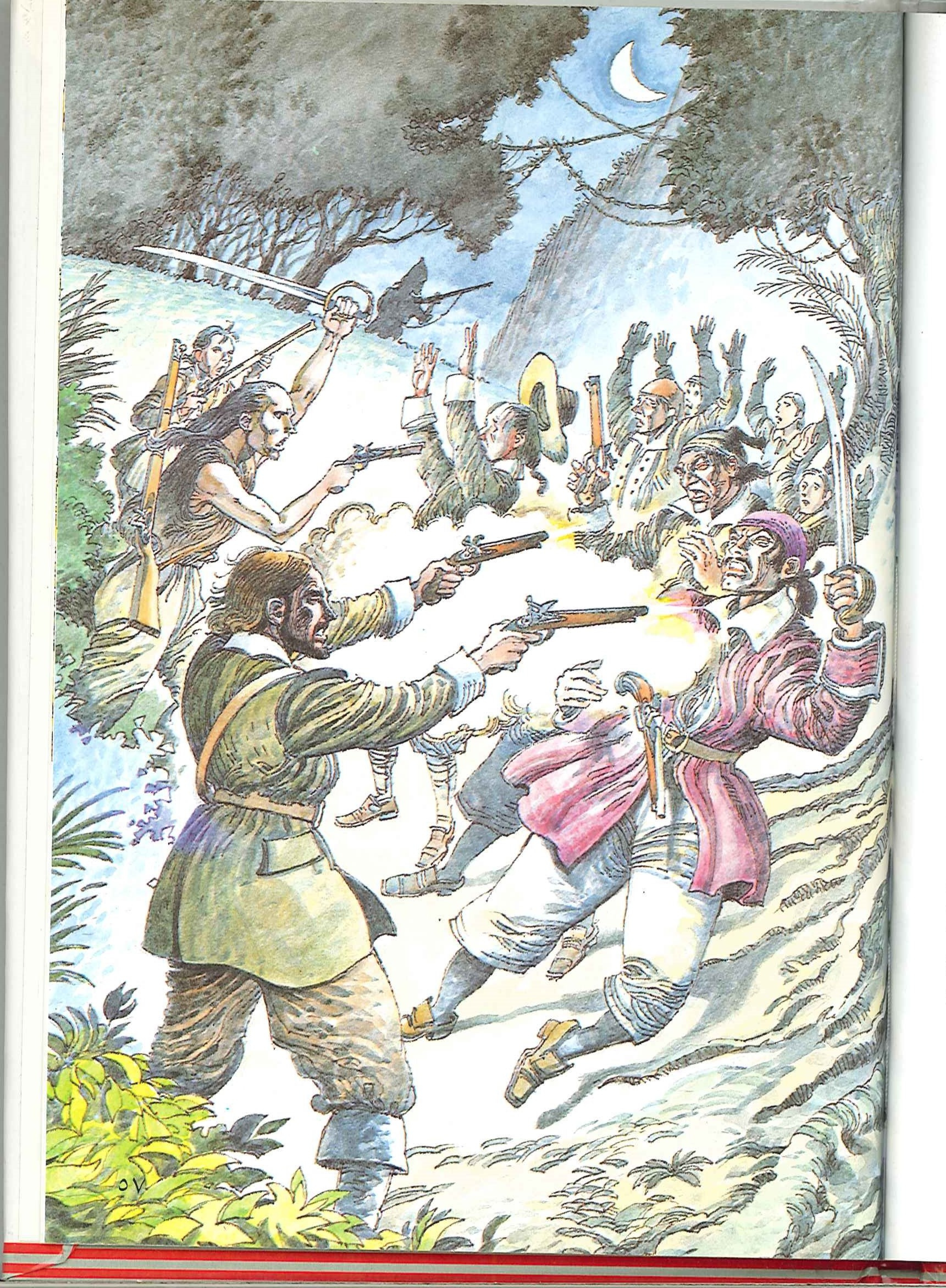



ونَجَحَتِ الخُطَّةُ تَمامًا كما كُنْتُ آمُلُ ، ولمّا أخَذَ البَحّارَةُ يَتَقدَّمونَ في العُمْقِ داخلَ الأدْغالِ ، اتَّخَذْنا - الرُّبّانُ وأنا - طَريقًا دُرْنا بها إلى الخَليجِ حَيْثُ كان الحُرّاسُ قائمينَ على حِراسَةِ القارِبِ . فَهَجَمْنا عليهم بِطَريقَةٍ مُفاجِئَةٍ ، وقامَ الرُّبّانُ بِضَرْبِ أحَدِهِم ضَرْبَةً عَنيفَةً بِكَعْبِ بُنْدُقِيَّتِهِ أوْقَعَتْهُ أرْضًا ، وسُرْعانَ ما اسْتَسْلَمَ الحارِسانِ الآخَرانِ بِدونِ مُقاوَمَةٍ . وكان أحَدُ هذَيْنِ الحارِسَيْنِ ، في أعْماقِ قَلْبِهِ ، شَخْصًا أمينًا كما أكَّدَ الرُّبّانُ . ولهذا انْضَمَّ إلينا عن طيبِ خاطِرٍ . وأمّا الآخَرانِ فقد أخَذْناهما أسيرَيْنِ .

بعد ذلِكَ دَلَفْنا إلى داخِلِ الغابَةِ وانْتَظَرْنا حُلولَ الظَّلامِ قَبْلَ أنْ نَبْدَأَ في البَحْثِ عَنِ السَّبْعَةِ الآخَرينَ من فَريقِ التَّفْتيشِ الَّذينَ اسْتَدْرَجْناهُم إلى داخِلِ الغابَةِ . ونَجَحْنا في أنْ نَقْتَفِيَ آثارَهُم بِتَتَبُّعِ أصْواتِهِم حتّى رَأيْناهم بعد ذلِكَ وقَدِ احْتَشَدوا في مَكانٍ صَغيرٍ مَكْشوفٍ .

وكان كُلُّ ما اسْتَطَعْتُ القِيامَ به هو أنْ أمْنَعَ الرُّبّانَ من إطْلاقِ الرَّصاصِ عليهم في الحالِ . ولكنْ بعد ذلِكَ رَأيْنا عَريفَ المَلّاحينَ - وهو قائِدُ التَّمَرُّدِ - قادِمًا نَحْوَنا مع اثْنَيْنِ من زُمَلائِهِ . عِنْدَئِذٍ صَوَّبَ الرُّبّانُ بُنْدُقِيَّتَهُ وأطْلَقَ النّارَ على زَعيمِ التَّمَرُّدِ فأرْداهُ قَتيلًا في التَّوِّ واللَّحْظَةِ ، وأصابَ أحَدَ الرَّجُلَيْنِ الآخَرَيْنِ إصابَةً قاتِلَةً . في تلك اللَّحْظَةِ وَصَلَ فرايداي ووَكيلُ الرُّبّانِ أيْضًا إلى مَكانِ الحادِثِ . ولمّا أدْرَكَ المُتَمَرِّدونَ أنَّهُ لم تَعُدْ هُناكَ جَدْوى لِعَمَلِ شَيْءٍ اسْتَسْلَموا في الحالِ .

أخَذْنا جَميعَ أسْرانا إلى حِصْني بَعْدَ ذلِكَ حَيْثُ أخْبَرَهُم الرُّبّانُ بِجَلالٍ ووَقارٍ أنّ الجَزيرَةَ مِنَ المُمْتَلَكاتِ البَريطانِيَّةِ ، وأنّها تَحْتَ إمْرَةِ حاكِمٍ له السُّلْطَةُ القانونِيَّةُ الّتي يَسْتَخْدِمُها لِتَقْديمِ المُتَمَرِّدينَ إلى المُحاكَمَةِ ثُمَّ شَنْقِهِم إذا ما ثَبَتَتْ إدانَتُهُم ، وإلّا فإنَّهُ قد يُقَرِّرُ إعادَتَهُم إلى إنجلترا كي تَتِمَّ مُحاكَمَتُهُم هُناكَ . ومع ذلِكَ فإنّ الرُّبّانَ على اسْتِعْدادٍ لِلتَّوَسُّطِ لدى الحاكِمِ كي يَسْمَحَ لهم بِالبَقاءِ على الجَزيرَةِ وتَعْليقِ عُقوبَتِهِم مع وَضْعِهِم تَحْتَ المُراقَبَةِ لاخْتِبارِ سُلوكِهِم . ثُمَّ تَرَكَ الأسْرى بَعْدَ ذلِكَ لِيَتَفَكَّروا في المَصيرِ الّذي يُفَضِّلون .





اسْتَوْلَيْنا على السَّفينَةِ

ها نحن قد وَضَعْنا خُطَّةً لإعادَةِ الإسْتيلاءِ على السَّفينَةِ بِمُقْتَضاها تمَّ الاتِّفاق على أنْ نَبْقى – فرايداي وأنا – في الحِصْنِ لِحِراسَةِ الأسْرى وإطْعامِهِم ، بَيْنَما يَتَقَدَّمُ الرُّبّانُ وَكيلُهُ وأرْبَعَةُ بَحّارَةٍ مِمَّنْ يَثِقُ بِهِم ويَتَوَجَّهُ الجَميعُ عِنْدَ الغَسَقِ في قارِبَيْنِ إلى السَّفينَةِ الرّاسِيَةِ . وكما عَلِمْنا – فيما بَعْدُ – فَقَدِ اقْتَرَبَ القارِبانِ مِنَ السَّفينَةِ ، ونادى أحَدُ البَحّارَةِ على أصْدِقائِهِ السّابِقينَ المُرابِطينَ على ظَهْرِها مُنَبِّئًا إيّاهُم أنّ كُلَّ شَيْءٍ كان يَسيرُ في مَجْراهُ الطَّبيعيِّ . ثُمَّ تَقَدَّمَ القارِبانِ بِجانِبِ السَّفينَةِ ، وكان أحَدُهما عِنْدَ وَسَطِها والثّاني عِنْدَ المُؤَخَّرَةِ . وبِحَرَكَةٍ سَريعَةٍ صَعِدَ الرِّجالُ إلى ظَهْرِ السَّفينَةِ وأطْلَقوا النّارَ على ثَلاثَةٍ مِنَ المُتَمَرِّدينَ كانوا أمامَهم فأرْدَوهم قَتْلى ، وفَعَلوا الشَّيْءَ نَفْسَهُ مع أرْبَعَةٍ آخَرينَ كانوا بِقَمَراتِهِم عِنْدَ مُؤَخَّرَةِ السَّفينَةِ . ووَقَعَ فَريقٌ آخَرُ في الشَّرَكِ داخِلَ المَطْبَخ . وأخيرًا حُشِرَ ثَلاثَةُ مُتَمَرِّدينَ آخَرينَ في أحَدِ الأرْكانِ على السَّطْحِ . وحَذَّرَهُمُ الرُّبّانُ جَميعًا مِنَ المَصيرِ الّذي كان يَنْتَظِرُهُم لو قاوَموا . ولم تَمْضِ ثَلاثُ دَقائِقَ حَتّى اسْتَسْلَموا جَميعًا . عِنْدَئِذٍ أُطْلِقَتْ ثَلاثُ أعْيِرَةٍ نارِيَّةٍ لإخْبارِنا ، ونحن لم نَزَلْ على الجَزيرَةِ ، أنَّ كُلَّ شَيْءٍ قد تَمَّ بِنَجاحٍ .

اسْتَغْرَقْتُ في نَوْمٍ عَميقٍ تلك اللَّيْلَةَ ، ولم يوقِظْني إلّا صَوْتُ الرُّبّانِ الّذي نَزَلَ إلى البَرِّ في الصَّباحِ الباكِرِ .

وناداني الرُّبّانُ قائِلًا : « سَيِّدي الحاكِمَ العزيزَ ، الصَّديقَ والمُنْقِذَ ! ها هي ذي سَفينَتُكُم ، إنّها لَكُم خالِصَةً ، وما نحن إلّا أتْباعُكُمُ المُخْلِصونَ » .

في أثْناءِ ذلِكَ قُدِّمَتْ إلينا على البَرِّ أصْنافٌ مِنَ الطَّعامِ لم أرَها مُنْذُ أكْثَرَ من ثَمانِيَةٍ وعِشْرينَ عامًا ، واسْتَمْتَعْنا بِمَأْدُبَةٍ مَلَكِيَّةٍ احْتِفالًا بِالمُناسَبَةِ السَّعيدَةِ . ثُمَّ أُحْضِرَتْ إلينا مَلابِسُ جَميلَةٌ ، فأخَذْتُ زينَتي وبَدَوْتُ فيها كحاكِمٍ حَقيقيٍّ . عِنْدَئِذٍ اسْتَدْعَيْتُ جَميعَ الأسْرى لِلْمُثولِ بَيْنَ أيْدينا .

وعِنْدَما أتوا أخَذوا يَلْتَمِسون الرَّحْمَةَ ويُناشِدونَني أنْ أسْمَحَ لهم بِالبَقاءِ على الجَزيرَةِ . وكُنْتُ معهم كَريمًا إذ وافَقْتُ على ما طَلَبوهُ ، ثُمَّ تَحَدَّثْتُ إليهم مُبَيِّنًا كيف يُمْكِنُهُم أن يَحْيَوا حَياةً طَيِّبَةً مُريحَةً إذا امْتَهَنوا فِلاحَةَ الأرْضِ وأحْسَنوا زِراعَتَها مُسْتَخْدِمينَ كُلَّ ما يَمْلِكونَ من مَهاراتٍ . ووَعَدْتُ أيْضًا أنْ أتْرُكَ لهم ما يَكْفيهم من بَنادِقِ الصَّيْدِ والذَّخيرَةِ لِاسْتِخْدامِها في الصَّيْدِ وفي حِمايَةِ أنْفُسِهِم .



رَحلْتُ عن جزيرتي

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي صَعِدْتُ إلى ظَهْرِ سَفينَتي التي كانت سَتُقِلُّني ومعي فرايداي إلى إنجلترا. ولا بُدَّ لي أنْ أعْتَرِفَ بأنّ قَلْبي كان مَمْلوءًا بالشَّجَنِ لأنّني كُنْتُ راحِلًا عَنِ المَكانِ الّذي كان عامِرًا بِوُجودي لأكْثَرَ من ثَمانِيَةٍ وعِشْرينَ عامًا.

وقُبَيْلَ إبْحارِنا سَبَحَ اثْنانِ مِمَّنْ تَرَكْناهم على الجَزيرَةِ نَحْوَنا وناشَدوني ألّا أتْرُكَهُم وَرائي. وأمامَ تَعَهُّدِهِمِ الجازِمِ بالوَلاءِ لنا والثِّقَةِ التّامَّةِ بِنا وافَقْنا – الرُّبّانُ وأنا – على أنْ يَنْضَمّوا إلينا على ظَهْرِ السَّفينَةِ.

وهكذا كان اليَوْمُ التّاسِعَ عَشَرَ من شَهْرِ ديسمبر عامَ ١٦٨٦ هو يَوْمَ رَحيلي عن مَمْلَكَتي بَعْدَ أنْ عِشْتُ على الجَزيرَةِ ثَمانِيَةً وعِشْرينَ عامًا وشَهْرَيْنِ وتِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا على وَجْهِ التَّحْديدِ، وكان رَحيلي أمْرًا مَرْغوبًا فيه، وقد حَمَلْتُ معي على سَبيلِ التَّذْكارِ قَلَنْسُوَتي الكَبيرَةَ الّتي كانت مَصْنوعَةً من جِلْدِ الماعِزِ، كما أخَذْتُ مِظَلَّتي وبَبَّغائي.

ووَصَلْتُ إلى إنجلترا في يونيو عامَ ١٦٨٧ بَعْدَ أنْ أمْضَيْتُ خَمْسَةً وثلاثينَ عامًا في المَجْموعِ بَعيدًا عن وَطَني.

وفي هُدوءٍ اسْتَقَرَّ بي المقامُ في مَوْطِني يوركشير، وكان أبَوايَ بِطَبيعَةِ الحالِ قد فارَقا الحَياةَ، كما أنّ مُعْظَمَ أقْربائي قد رَحَلوا عَنِ المِنْطَقَةِ. واسْتَطَعْتُ عن طَريقِ وُكَلائي الأُمَناءِ في لشبونةَ والسّلفادور أنْ أتَقاضى ثَمَنًا لِضَيْعَتي في البرازيلِ أكْثَرَ من ثَمانِيَةِ آلافٍ مِنَ الجُنَيْهاتِ. وقد أعانَني ذلِكَ على أنْ أعيشَ بِالقُرْبِ من مَدينةِ يورك كتاجِرٍ ثَرِيٍّ مُتَقاعِدٍ.

وبَعْدَ سَنَواتٍ قَليلَةٍ قَضَيْتُها في كَسَلٍ مُسْتَساغٍ بَدَأْتُ أشْعُرُ بِقَلَقٍ مُتَزايِدٍ، فَعَزَمْتُ على أنْ أُجَدِّدَ زِيارَتي لِلأماكِنِ الّتي شَهِدَتْ مُغامَراتي الأولى. ولهذا أخَذْتُ سَفينَةً وأبْحَرْتُ بها إلى البَحْرِ الكاريبي عامَ ١٦٩٤.

وبعد بِضْعَةِ شُهورٍ، وأنا في حالَةِ اسْتِثارَةٍ وانْفِعالٍ مَشْبوبٍ بالبَهْجَةِ، نَزَلْتُ إلى البَرِّ عِنْدَ الخَليجِ نَفْسِهِ الّذي طالَما اسْتَخْدَمْتُهُ قَبْلَ سَنَواتٍ عَديدَةٍ.



وفي هذه المَرَّةِ أخَذْتُ معي كَمِّيّاتٍ لا بَأْسَ بها من الطَّعامِ، وعَدَدًا كَبيرًا مِنَ المعَدّاتِ والأسْلِحَةِ والذَّخيرَةِ والمَواشي بما فيها البَقَرُ، وكَمِّيَّةً كَبيرةً من بُذورِ النَّباتاتِ ومن بَيْنِها بُذورُ البُنِّ. وقُمْتُ بِزِراعَةِ قَصَبِ السُّكَّرِ والخُضْراواتِ.

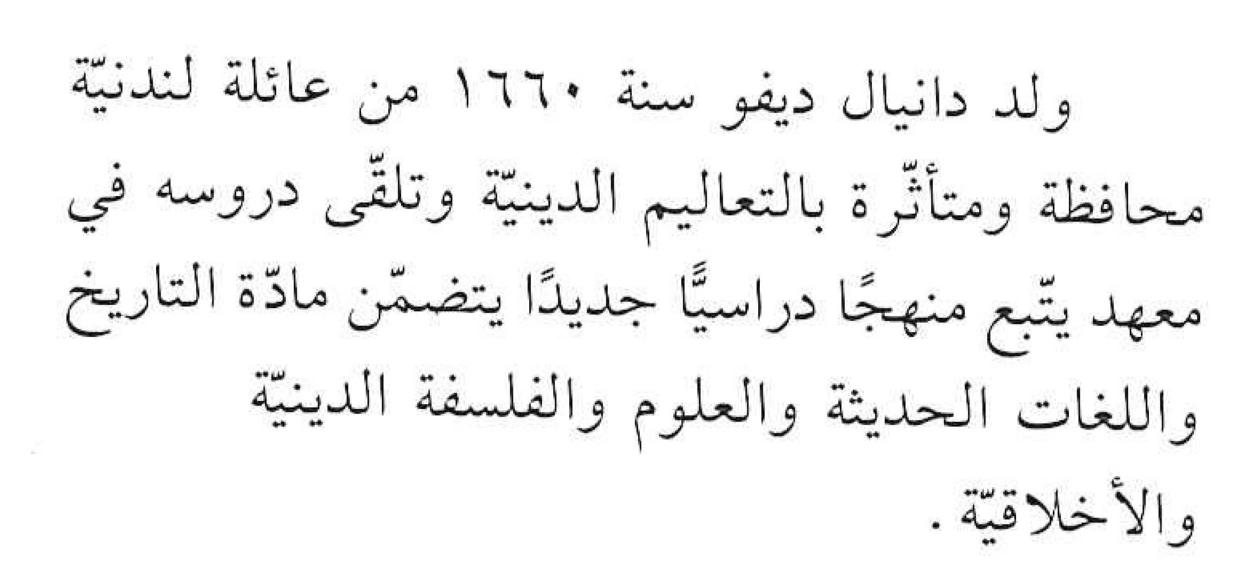
وكانتِ الجَزيرَةُ قد تَغَيَّرَتْ كَثيرًا أثْناءَ فَتْرَةِ غِيابي، ولكنّ مُلْكِيَّتي لها وسُلْطاني عليها لم يَزالا وَقْتَئِذٍ مَوْضِعَ التَّذَكُّرِ والتَّكْريمِ. فقَدِ اسْتَقَرَّ على الجَزيرَةِ في نِهايَةِ الأمْرِ الإسبانِيّونَ الّذين كُنْتُ قد دَعَوْتُهُم لِلْعَيْشِ معنا، وانْضَمَّ إليهم بعد ذلِكَ آخَرونَ ومعهم زَوْجاتُهُم وعائِلاتُهُم. وفيما بَدا لي كانوا جَميعًا يَعيشونَ في سَلامٍ ووِئامٍ. وسَرَّني أنْ أرى عِشْرينَ طِفْلًا على الأقَلِّ يَعيشونَ بَيْنَ ذلِكَ المُجْتَمَعِ. وكان ذلِكَ مِمّا قَوّى في نَفْسي الأمَلَ في المُسْتَقْبَلِ.

أمْضَيْتُ على الجَزيرَةِ ثَلاثَةَ أسابيعَ قَسَّمْتُ الأرْضَ خِلالَها بَيْنَ الجَماعاتِ والعائِلاتِ المُتَبايِنَةِ ، وأَعَنْتُ الجَميعَ على تَنْمِيَةِ وتَقْوِيَةِ البُنى الخاصَّةِ بالجالِياتِ المُخْتَلِفَةِ وبِالمُجْتَمَعِ كَكُلٍّ ، تلك البُنى الّتي كانت بِالفِعْلِ مُتَأَصِّلَةً على الجَزيرَةِ . ولكنْ أخيرًا حانَ وَقْتُ الرَّحيلِ ، فأَبْحَرْتُ إلى البَرازيلِ بِقَلْبٍ مُفْعَمٍ بِالأسى والأَسَفِ . وحينَ وَصَلْتُ هُناكَ أَعْدَدْتُ التَّرتيبَ اللّازِمَ لأُرْسِلَ إلى أَصْدِقائي مَقاديرَ وَفيرَةً من شَتّى الأَصْنافِ مُتَضَمِّنَةً خَمْسَ بَقَراتٍ وبَعْضَ الماشِيَةِ .

لقد كُنْتُ أَشْعُرُ أنّ سُكّانَ الجَزيرَةِ هم أَهْلي وعَشيرَتي ، ولهذا عَقَدْتُ العَزْمَ على أنْ أُرْسِلَ إليهم ما يَجْعَلُ مَخازِنَهُم مَمْلوءَةً على الدَّوامِ طالَما كُنْتُ على قَيْدِ الحَياةِ .

وعِنْدَما عُدْتُ في نِهايَةِ الأَمْرِ إلى إنجلترا وَجَدْتُ أنّ الإقامَةَ بها في حَياةٍ هادِئَةٍ رَتيبَةٍ أَمْرٌ مِنَ الصُّعوبَةِ بِمَكانٍ أنْ يَتَحَمَّلَهُ الإنْسانُ . ولذلك شَرَعْتُ بعد سَنَواتٍ قَلائِلَ في القِيامِ مَرَّةً أُخْرى بِمُغامَرَةٍ بَحْرِيَّةٍ . وإني أَعْتَزِمُ في الوَقْتِ المُناسِبِ أنْ أُسَجِّلَ بَعْضًا من تلك الأَحْداثِ المُدْهِشَةِ الّتي مَرَرْتُ بها في هذه الرِّحْلَةِ المُثيرَةِ .





دانيال ديفو

ولد دانيال ديفو سنة ١٦٦٠ من عائلة لندنيّة محافظة ومتأثّرة بالتعاليم الدينيّة وتلقّى دروسه في معهد يتّبع منهجًا دراسيًّا جديدًا يتضمّن مادّة التاريخ واللغات الحديثة والعلوم والفلسفة الدينيّة والأخلاقيّة .

أراد في مطلع حياته أن يصبح مبشِّرًا ولكنّه ما لبثَ أن عَدَلَ عن هذه الفكرة ، ولا تزال الأسبابُ الحقيقيّة الكامنةُ وراء تبديله رأيه مجهولةً ، فهو على الأرجح كان يبحث عن آفاق جديدة أوسع . إلّا أنّ حياته الجديدة لم تَحُلْ نهائيًّا دون تعاطيه شؤونَ الدين .

بعد ذلك ، باشر الأعمال التجاريّة وعندما تزوّج في العام ١٦٨٤ ، كان يُلقّب بالتاجر . تطلّبت مشاريعهُ الكثيرَ من الأسفار ، ضمن حدود الأراضي البريطانية وإلى مختلف دول القارّة الأوروبيّة ، فكان على غرار أبطال رواياته يجولُ العالم . تبدّلت أوضاعُه المالية مِرارًا ، فكان مثل كروزو ، بطل روايته ، طموحًا بل مغامرًا . وآلَ به الأمر سنة ١٦٩٢ ، إلى حدِّ الإفلاس ، غير أنّه ناضل ونجح بتسديد أموال دائنيه بواسطة الأرباح التي درَّها عليه مصنعُ قرميد كان يتولّى إدارتهُ . وتجدر الإشارة إلى أنّ ديفو بدأ في هذه المرحلة ممارسة نشاطِه السياسيّ علمًا أنّه أمضى حياته ينتقل من حزب إلى آخر . ومع حلول العام ١٧٠٠ ، كان نشاطه قد توسّع على الصعيدين التجاريّ والسياسيّ ، إلّا أنّه لم يقتصرْ على ذلك ، فكان رصيدُه من المنشورات يرتفع بشكل سريع ويكاد يكون لا يصدّق . وأوّل منشوراته تناولت المواضيع الاقتصاديّة والتجاريّة والاجتماعيّة . كانت مؤلّفات ديفو تصدر في كتب أو في الصحف آنذاك .

حاول الكثيرون انتقاد أعماله ، لا سيّما السياسيّة منها ، وذلك لأنّه ، كما ذكرنا آنفًا ، كان ينتقل من دعم جهة سياسيّة إلى تأييد الأخرى ، هذا فضلًا عن أنّه كان يتقاضى الأموال مقابل كتاباته السياسيّة هذه . لكنّ دانيال ديفو كان يَعتبرُ شخصيًّا أنّ كافة الجهود التي بذلها هدفت إلى غايات بنّاءة .

استطاع دانيال ديفو بشكل عامّ أن يوصل رسالته إلى قرّائه بأسلوب مؤثّر ومقبول لدى الناس، أي شعبيّ من دون أن يكون مبتذلًا. وكان كذلك بارعًا في التكيّف مع مختلف الظروف وفي محادثة أيّ كان، وكلّ حسب طريقته. وكان في الخيال، كما في الواقع، يندمج في أدوار يؤدّيها، ولطالما تطلّبت منه هذه المسألة الانتباهَ والقدرةَ على التكيُّف والسيطرةَ الكاملة على الأفكار والمهارةَ في اختيار الألفاظ المناسبة. كان ديفو يتعامل مع أشخاص من مختلف الطبقات الاجتماعيّة والفكريّة؛ تعامَلَ مع صانعي السفن والتجّار والمحامين ورجال الدين والصناعيّين والسياسيّين والصّحافيين كلّ حسب طريقته. وأكثر ما تميّزت به كتابات ديفو، كانت قدرتُه على خلق واقع خياليّ مقنع بقدر ما كانت الحقيقة بحدّ ذاتها مقنعة. وغالبًا ما يصعب على قرّائه التمييز بين الحقيقة والخيال المبدع في كتاباته. فلقد أظهر دانيال ديفو مهارةً مميّزةً في جعل قرّائه يغرقون في دنيا التفاصيل الدقيقة التي يغني بها نصّه ويستمتعون بأسلوبه الروائيّ الواضح.

مؤلّفاته

تنوّعت كتابات دانيال ديفو الذي بدأ سنة ١٦٩٨ بأعمال تناولت الاقتصاد والأعمال والتجارة والمسائل الاجتماعيّة. ثمّ انتقل إلى الأعمال الأدبيّة سنة ١٧٠٤. تخلّلت هذه السنوات كتابات في الصحف تناولت المسائلَ السياسيّة والدينيّة والأخلاقيّة. وفي العام ١٧١٩ بدأت سلسلة الروايات، فكانت رواية بعنوان The Life and Strange Surprizing Adventures of Robinson Crusoe أوّل أعماله. لكن ما لبثَ أن ألَّف في العام نفسه روايتَه الثانية بعنوان Farther Adventures. وفي العام ١٩٢٠، كتب Serious Reflections of Robinson Crusoe.

أمّا العام ١٧٢٢، فشَهِدَ ولادةَ عددٍ من الأعمال الصغيرة وثلاثة أعمال كبرى وهي: Fortunes and Misfortunes of the Famous Moll Flanders (وهي سيرةٌ ذاتية تضاهي بجودتها كتاب كروزو) وَ A Journal of the Plague Year، وهي رواية حيّة لاجتياح مرض الطاعون للندن سنة ١٦٦٥ . توفّي دانيال ديفو سنة ١٧٣١ عن ٧١ عامًا بعد أن أغنى العالم بعطاءاته المبدعة.

